المشرق

بعض اديار مصر القديمة

لحضرة الاب ميخائيل جوليان اليسوعي

قد اتّفق لنا في اسفارنا في انحاء مصر ان نتعهّد آثارًا عديدة وادیارًا قديمة سكنها القديسون من اهل النسك والزهد الذين عاشوا على طريقة القديس باخوميوس والقديس انطونيوس وادهشوا العالم بتقشفاتهم وفضائلهم. وهذه الاخربة لا يقصدها السياح لانهم لا يشاهدون فيها من فخامة البناء ودقيق الصناعة وغريبها ما يشاهدونهُ في آثار الفراعنة والبطالسة. واما الوطنيّون فلا يهتمون بهذه البقايا المسيحيّة ولعلّهم يجهلونها جهلًا تامًّا وسنقتصر في مقالتنا هذه على ذكر اهمّ هذه الاديار القديمة التي تستحق الاعتبار والنظر والتي لم يسبق لنا الكلام عنها من قبل مكتفين فقط بوصف ما رأيناه رأي العين وما سمعناهُ ممَّا لهُ علاقة بحياة القديسين الذين اقاموا فيها. ولا شيء احبّ لدينا من تدوين اعمال اولياء الله. ولنفتتح الكلام مبتدئين بالشمال

١

دير القديسة دميانة

يرى المسافر شمالي المنصورة على طرف الارض المالحة والمستنقعات التي تنتهي بها مصر السفلى من ناحية البحر ديرًا جميلًا يعتبرهُ الاقباط اجلّ اعتبار ويسمونهُ دير الستّ دميانة وهو نفس الدير الذي قضت فيهِ دميانة العذراء حياتها وهناك تمّ استشهادها في أيّام الاضطهاد الذي اثارهُ على المسيحيين ديوقليسيانوس الملك. ويحج الاقباط افواجًا

الى هذا المقام من كافة انحاء مصر السفلى يوم ذكر تدشين الكنيسة في ١٠ أيار

ولمّا كان السيد مكسيموس اسقف هرموبوليس الكبرى الكاثوليكي في الاسكندرية رغب يوماً ان يزور دير الست دميانة وهو عائد الى كرسيه في المنيا فصحبتهُ في سفره

فسرنا الى هذا الدير راكبين السكّة الحديديّة المنشأة حديثاً وهي توازي الساحل مارّةً ببلدة بلقاس. وبلقاس على مسافة اثني عشر كيلومتراً من الست دميانة جنوبيًّا

وكنّا في اثناء المسير نقرّ العين بمشاهدة مدن عديدة كانت في سالف الاعصار مقامات للاساقفة كدمنهور المعروفة قديمًا بهرموبوليس الصغرى. ثمَّ دسوق التي بقربها كانت مدينة نوكراتيس عند قرية نبيره الحاليّة. ثم شبّاس الشهداء وهي كباسا (Cabasa) القديمة التي على اسمها سُقف قاصد مصر الرسولي شرفاً ثم سخا (Xoïs) احدى عواصم مصر في غابر الزمان. ثم آخرًا بلقاس وكانت تُعرف باسم ديوسپوليس وهي پيناميس القديمة

وبلقاس قرية كبيرة عامرة وهي قصبة المركز المنسوب اليها الذي يُعدّ كاعظم مراكز مصر. فاستقبلنا « العمدة » واكرم وفادتنا وهيَّأ لنا المطايا لنركب الى الدير قبل ان ينشر الليل نواءهُ

ولمّا جزنا القرية مررنا بالقرب من كنيسة القبط الارثدكس ذات قباب عالية جميلة. ثم سرنا في وسط مزارع نضرة بجارين الترعة من ترع الريّ. ثم مالت بنا الطريق الى اليمين وتغيَّرت علينا المناظر فلاحت لنا سهول فسيحة ضويَّة النبات قليلة الريع تخدُّها الاخاديد العميقة وتتخلَّلها مجاري المياه. امّا القرى في تلك البطاح فعبارة عن سور من الطين اشبه بحظيرة في ضمنه صفوف اكواخ حقيرة يسكنها عَمَلة شركة زراعيَّة تُدعى « شركة البحيرة » نسبةً الى مديريَّة البحيرة المجاورة للاسكندريّة في غربيّها. وهذه الشركة قد ضمنت مسافة ٤٢٠٠٠ هكتار من الارض البائرة لتستثمرها وتحسّن تربتها. وقد نالت هذه الشركة ارباحاً وافرة وهي تفضِّل الطرائق الزراعيَّة الاقتصاديّة المألوفة في مصر على اصول الفلاحة المستحدثة واختراعاتها المستجدّة التي تقتضي في الغالب نفقات عظيمة ولعلّها لا تصلح لهذه البلاد

ومن آفات المزارع في هذه النواحي (اللهمَّ الّا الأرزّ) ما يخالط التربة من الملح.

وقد حُفرت الجداول في وسطها ليجري اليها الماء العذب فيحلّل الملح واذا تحلّل الملح صار ثقالهُ اعظم مجرى الى الاخاديد العميقة التي ذكرناها. وهي تُدعى مراكف(؟). وقد اتّفق مرورنا بكثير منها فوق معابر لا تصلح الّا لمرور الماعز. وهذه المعابر تتألف من خشبتين دقيقتين عرضها ٥٠ سنتيمترًا فوقها شيء من الحشيش والمدر يُرى من خلالها الماء الجاري. واذا بلغت الدابَّة احد هذه المعابر الخطرة صاح بها الجمَّار: «رجلك» فاخذت حذرها ومرّت على رساها سالمةً

ولمَّا انتهينا من عبور هذه الخنادق وقع نظرنا على الدير فلاح لنا في وسط هذه الارض القفرة على هيئة تأخذ بمجامع القلب. وذلك انك ترى قبابهُ البيضاء تعلو سور الدير على شكل صومعة ذات طبقات متعددة. وكانت الشمس عند مغيبها ترسل على هذه الابنية اشعتها الذهبيَّة فتنعكس صورتها على الأفق. ومن يراها عن بعد يخالها كنيسة روسيَّة بديعة الحسن نُقلت من صحاري الشمال الى بطائح الشرق المنيرة. وهكذا كان وصفها لنا احد المهندسين المتولين سقي النيل لمَّا علم انَّنا ناوون زيارتها فتحقَّقنا صدق وصفه. ثم مشينا في سبخةٍ لا يُرى فيها اثر الزراعة وانَّما تنبت فيها بعض اعشاب رمداء كما في السواحل الى ان بلغنا الدير فاذا هو بناء مربَّع تكسير جوانبهِ ستُّون مترًا على التقريب. وبابهُ الى الشرق يقوم بحراستهِ كثيرٌ من الخدم

فلمَّا دخلنا ارسلنا الى الرئيس كتاب وصاةٍ كان اصحبنا بهِ خوري القبط الارثذكس في المنصورة. فما لبث الانبا بطرس ان نزل ليستقبلنا واحتفى بنا مرحّبًا قبل ان يسبر غورنا. وكان سيادة المطران مكسيموس قد نزع خاتمهُ واخفى صليبهُ ليبقى بصفة كاهن بلديّ مجهول امَّا انا فكنتُ على هيئة سائح افرنجي

وكان هذا الرئيس ربعةً قصير القامة في مقتبل العمر لهُ لحيةٌ خفيفة لطيف الطباع كثير المؤانسة. وفي الدير ثلاثة كهنة اعزاب ينتسون الى رهبان القديس انطونيوس الّا انهُ ليس ثمَّت اثرٌ للقانون الرهبانيّ ولعلّهم قضوا مدَّةً في احد اديار نطرون او الاسقيط وليس شيء آخر يفرق بينهم وبين بقيَّة الكهنة الارثذكسيين. ولمَّا اجتمعنا بهم اكَّد لي احدهم انهُ يعرفني وانهُ لقيني قبل بضع سنوات في اورشليم. فتذكرت اذ ذاك انني كنتُ يومًا في القدس اتجوَّل على جبل الزيتون قريبًا من الابنية الروسيَّة التي هنالك اذ لقيني كاهنٌ ظننتهُ من الحبش فكاشفني عن رغبتهِ في اتباع العقائد الكاثوليكيَّة

وكأنَّ رؤساءهُ وقفوا على نيّاته فنفوهُ بعد ذلك الى دير الست دميانة ليحيد عن فكره بالاهتداء. ولئلاَّ يعود يجتمع بكاهن كاثوليكيّ

ثم طلبنا الى الرئيس بان يفيدنا شيئاً عن تاريخ هذا الدير فعمد الى كرّاس مخطوط على جدولَين قبطيّ فعربيّ يتضمَّن قصَّة القديسة « دميانة » ومنهم من يروي "جيانة ". والكرّاس عبارة عن خمس عشرة صفحة مزيّن بنقوش غير محكمة التنميق ولا اظنّهُ يتجاوز ما وراء القرن السادس عشر. مؤلفهُ يوحنا اسقف بُرلس يقول في مقدّمته انهُ حظي بهذه الترجمة المكتوبة بخط القديس يُسطوس صاحب تراجم كثير من الشهداء الذين قُتلوا في سبيل الايمان على عهد ديوقليسيانوس. واليك خلاصة حياة القديسة دميانة

كان ابو الشهيدة يُدعى مرقس وكان والياً على مدينة صفران التي موقعها قريباً من الدير في جنوبه الشرقيّ. ولمَّا بلغت دميانة سنَّ الزواج اراد ابوها تزويجها امَّا الفتاة فابت قائلةً: « كلاَّ ان عروسي هو السيّد المسيح. لكنني ارغب اليك ان تبني لي ديراً انقطع فيه مدَّة حياتي الى خدمة الله وحدهُ ». فلم يرَ ابوها بدًّا من اجابة طلبتها وابتنى لها ديراً في مكان الدير الحالي فسكنتهُ دميانة مع اربعين من العذارى اللواتي زهدنَ على مثالها بالدنيا وشاطرْنها نصيبها في خدمته تعالى

ثم بلغ ديوقليسيانوس خبرها فبذل غاية جهده ليستميل اباها الى عبادة الاوثان وما زال يغريه بالوعد والوعيد حتى نال منهُ مبتغاهُ ورقَّاهُ جزاء لكفره الى رتبة الولاية على فرامة وكانت مدينة كبيرة على جوار بلوزة

امَّا دميانة فاشجاها الامر ايَّ شجاً ومن وقتها لحقت بابيها ولم تزل تتوسَّل اليه حتى اناب الى الله واضرمت قلبهُ ندامةً على فعله. لكنَّ الامبراطور استشاط عليه غضباً وامر بقطع راسه ثم اوفد فرقةً من الجند الى وادي فيزيلن حيث كان دير دميانة فانتهكوا حماهُ ونكَّلوا بالقديسة دميانة تنكيلاً ثم القوها في سجن مظلم حيث تراءى لها الملاك ميخائيل فابرأها من جراحاتها. الاَّ انَّ الجلاَّدين عادوا الى عذابها وعذاب رفيقاتها وقطعوا آخراً رؤوسهنَّ وذلك في ١٣ من شهر طوبه (٢١ ك ٢)

وفي الكرّاس الذي لخصتهُ اقاصيص عديدة وتفاصيل خياليَّة غريبة زادها الكاتب على مألوف عادة الاقباط. وقد طُبعت حديثاً ترجمة هذا الكتاب العربيَّة في القاهرة بهمَّة وكيل اوقاف مطران القدس

وكان الليل في اثناء ذلك بسط اجنحتهُ . اذ جاء ثلاثة من اصحاب تقسيم الاملاك وطلبوا في الدير محلاً يأوون اليه فاضطجعوا تحت الرواق الذي كنا فيه نتجاذب اطراف الحديث ملتحفين باغطيتهم فلم نحبّ ان نزعجهم واوينا نحن ايضاً الى الفراش مؤجلين زيارة الدير الى غدٍ

وكانت زيارتنا الاولى في صباح اليوم التالي لكنيسة الدير . وعلى بابها كتابة قبطيَّة تفيدنا انَّ السيد باسيليوس مطران القدس على الاقباط رمَّم الكنيسة والدير في سنة ١٦٠٣ للشهداء الموافقة للسنة ١٨٨٧ المسيحيَّة . والدير تحت حكم هذا الاسقف الذي تمتدّ ابرشيَّتهُ على قسم كبير من مصر السفلى

واذا تجاوزت الباب دخلت في بناء فخيم مستدير يدهش الابصار وفي صحنهِ قبر القديسة الشهيدة ورفيقاتها الاربعين تعلوهُ قبَّة باسقة تقوم على اربع دعائم وكل دعامة عبارة عن اربعة اعمدة ضُمَّت الى بعضها وحول هذه الدعائم سوقٌ واسع على شكل الحلقة . امَّا القبر فهو شبيه بدكَّة مربَّعة علوُّها نحو متر وجوانبها اربعة امتار وعلى هذه الدكَّة صورة صليب عريض ناتئ . وقد طُلي القبر كلهُ بدهون على شبه الرخام . وفي جهة الغرب هيكل يستند الى المشهد . وبازائهِ من جهة الشرق معبدٌ يُعتبر كمدخل للكنيسة الكبرى التي هي قديمة العهد لكنَّها غليظة البناء ليس فيها اثرٌ يُذكر اللهمَّ الَّا اخشابها المشبَّكة ذات المربَّعات الدقيقة الصنع المنزلة بالعاج ومثلها كثير في كنائس الاقباط العتيقة

امَّا بقيَّة الدير فلم نرَ فيهِ ما يستلفت النظر فانَّهُ يتألف من مجموع غرف غير متَّسقة وقاعات عموميَّة وباحات وسلالم أُلحق بعضها بالبعض بلا نظام ولا هندام في ازمنة متباينة على مقتضى حاجة رهبان كل عصر . لكنَّهُ لا ينقصهُ شيء من لوازم المعاش والمتانة ولو حاصرهُ عدوٌ لاستطاع سكَّانهُ ان يصبروا على الحصار ايَّاماً ريثما يأتيهم المدد من الخارج . وللدير املاك تبلغ سعتها ١٢٧ هكتاراً وتربتها جيّدة تكفي غلَّتها لمعاش الرهبان واصلاح ما خرب من ابنيته

وقد لحظنا في هذا الدير من النظام وسعة العيش والسكينة ما كان لنا اقوى دليل على حسن ادارة رئيسهِ الانبا بطرس وثقة مرؤوسيهِ بهِ

ومن سطوح الدير يمتدّ النظر شمالاً الى سهولٍ قفرة غبراء تنتهي بكثبان من الرمل

وراءها البحر وليس هناك ما ينبئ بوجود البشر الّا بيت حقير فوق رابية يأوي اليه ناطور الشواطئ. ومياه تُرعٍ شبيهة بالنضار تجري فيها قوارب صغيرة. وكذلك بعض قطعان من الغنم السود تسرح في تلك الفيافي. امّا جهتا الشرق والغرب فلا تميّز العين في آفاقهما سوى خطوطٍ قائمة يخيّم فوقها سحابة تدلّ على قرًى تحجبها غابات النخل

وكان رجوعنا الى القاهرة في مساء ذلك النهار على طريق المنصورة وطنطا في السكّة الحديديّة التي تسير في وسط بقاع لا يشاكلها غيرها في مصر زكاءً وخصباً

٢

مدينة البهنساء

من المدن القديمة الشهيرة بالآثار مدينة البهنساء وكان اسمها في غابر الاعصار أُكسِرِنكوس (Oxyrrhincus) وهو اسم سمكةٍ تُعرف اليوم في مصر بالتنّومة (mormyrus oxyrrhincus) ودُعيت البهنساء بذلك لان اهلها كانوا يعبدون هذه السمكة كما كان يعبد الكلاب اهلُ كينوبوليس وهي مدينة كانت قائمة بازاء البهنساء على ضفّة النيل تُعرف اليوم بشيخ فضل. وحدث في احدى السنين انّ اهل كينوبوليس اصطادوا سمك التنّومة فاكلوه فاغتاظ اهل البهنساء واكلوا لحم الكلاب انتقاماً منهم فنشبت لذلك حرب بين المدينتين لم يخمد سعيرها الّا بتوسّط الجنود الرومانيين الذين فصلوا بين الفريقين

ثم لاحت انوار النصرانيّة في مصر وكان اهل مدينة البهنساء ممّن اكتحلوا منذ القرون الاولى بدين المسيح ونبذوا شناعات الوثنيّة وامتازوا بعد حين بقداسة السيرة وزهد كثيرون منهم بالدنيا حتى صارت البهنساء تُعدّ كمدينة الزهّاد والرهبان

ولنا على ذلك شهادة صريحة في الفصل الخامس من كتاب روفين (Rufin) المعنون تاريخ الرهبان (١) فان هذا الكاتب الشهير قدم في اواخر القرن الرابع للمسيح ومعهُ القديسة ميلانية وزار البهنساء فوجد فيها عشرة آلاف راهب وعشرين الف راهبة عذراء. وقال ما تعريبهُ:

« وبلغنا احدى مدن الصعيد حيث وجدنا الدين زاهراً ايّ ازدهار حتى انّنا لو اردنا بيان الحقيقة كلها لنسبَنا القرّاء الى المبالغة فان المدينة تغصّ بالرهبان وفي ظهرانيها عدد لا يُحصى من الاديار

(١) راجع مجموع الآباء اللاتين لمين (المجلد ٢١ ص ٤٠٨)

وقد حوّل الجمهور الابنية العمومية وهياكل الاوثان الى مساكن يأوي اليها النساك. وعدد الاديار في هذه المدينة ينيف على عدد بيوتها. وهي تحتوي على اثنتي عشرة كنيسة عمومية فضلًا عمّا لكل دير من المعابد الخاصة. هذا وانّ ابواب المدينة وابراجها واسوارها وكل خلواتها قد اصبحت ملاجئ لاذ بها الرهبان فتراهم يقيمون فيها ليلًا مع نهار وهم يسبّحون الله ويمجدونهُ بحيث تحسب ان المدينة كلها كنيسة واحدة. ولو اراد الاسقف ان يقيم الصلاة في ساحات البلد لامكنهُ ذلك كما في الكنيسة لانّ سكانها كلهم من الكاثوليك ليس بينهم وثني ولا مبتدع. وقد اقام الوجوه والاعيان بينهم رجالًا على ابواب المدينة لينبئوهم بقدوم الغرباء والفقراء ليسرعوا الى دعوتهم الى بيوتهم ويحتفوا بهم ويقضوا حاجاتهم . . . »

وقد دوّن التاريخ اسماء بعض القديسين الذين اشتهروا في البهنساء. منهم سنوثيوس او شنوده (١ الذي استشهد على عهد ديوقليسيانوس. والقبط يذكرونهُ في ١٤ برمهات (٢٤ اذار). ومنهم الاسقف تادورس او تاذرس احد مقاومي الشيعة اللوسيفرية. والاسقف أبيفني جامع اقوال الآباء. (٢. وكان هذا في اول امره ناسكًا كثير التقشّف والاماتة. فلمّا صار اسقفًا رأى نفسهُ عاجزًا عن مواصلة تلك المعيشة الشظفة فشكا امرهُ الى الله بقوله: « اللهمّ اتكون حرمتني نعمتك بسبب الاسقفيّة ». فاجابهُ الربّ: « كلّا لم تفقد نعمتي. وانّما كنتُ اعينك بذاتي على ممارسة اعمال التوبة لمّا كنتَ في عزلة عن البشر. امّا اليوم وقد صرتَ في وسط العالم فانّ الناس يتولّون ترويضك في سُبل الفضيلة »

ومع ما كانت عليهِ البهنساء من الدين والتقوى تمكّن الشيطان خزاهُ الله من زرع بذور الشقاق في وسطها. وقد انتصر بعض اساقفتها لملاطيوس بطريرك انطاكية وتبعوهُ في ضلالهِ (٣ وكذلك البدعة اليعقوبيّة فانّها نالت من اهلها واضلّتهم سواء السبيل

والبهنساء في ايّامنا عبارة عن قرية متوسّطة في الكبر موقعها على الضفّة الغربيّة من ترعة بحر يوسف بإزاء محطّة بني مزار بين المنيا وبني سويف على بُعد متساوٍ منهما ولمّا لم اجد احدًا من معارفي تعهّد البهنساء ونواحيها صمّمت العزم على زيارتها

١) راجع تراجم الآبا الفصل الخامس
٢) قد نُشر هذا الكتاب باللاتينية واليونانية بهمّة كوتلاريوس
٣) راجع الشرق المسيحي للوكيان

مع احد الرهبان من جميّتنا وسلّمنا امرنا الى شيخ الخمّارين في بني مزار ليقودنا الى تلك الجهات وكان بعض الركّاب اجتمعنا به في القطار وصاه بنا وعظّمنا عنده زاعماً أننا من اصحاب المراتب السنيّة

فكان مسيرنا الى جهة الغرب على طريق زراعية لاحبة . وبعد ان قطعنا خطّين من السكك الحديديّة أُنشئا هناك لنقل قصب السكر لمعمل مغاغة عبرنا اربع ترع من ترع السقي فبلغ بنا المسير بعد ساعة ونصف الى قرية اشروبة وعندها آخر الطريق . ومن ثم مشينا في مسالك ضيّقة تتخلّل الحقول ادّت بنا في اقلّ من ساعة الى قرية كبيرة تدعى سندافة وهي بازاء البهنساء ليس بينهما سوى ترعة بحر يوسف

فسار بنا المكاري توًّا الى بيت العمدة وادخلنا ديوانهُ دون تكلفة . وكان شيخ الضيعة جالساً وحولهُ بعض الفلّاحين يقضي بينهم ويحلّ مشكلاتهم . فلمّا رآنا القوم تعجّبوا اوّلًا من زيّنا الاوربّي وهم لم يعهدوا مثل ذلك سابقًا . لكنّ شيخ الخمّارين ازال اندهاشهم ووصفنا لهم باحسن الصفات واعظم الالقاب . فقام العمدة من فوره واخذ يبالغ في اكرامنا وامر بان تُعدّ ذهبيّتهُ لركوبنا ولم يرضَ ان نجتاز الترعة على زورق بسيط ثم فوّض الى ستّة من رجاله ان يُرونا في البهنساء كلّ ما نحبّ تفقّدهُ

فقطعنا الترعة وعرضها في هذا المكان كعرض نهر ثم ولجنا طريدةً من البساتين لقينا وراءها خرقاً من الرمال القاحلة في وسطهِ جدران ماثلة ومناور متداعية وقبور متشبّة استولى عليها الخراب . وترى غربيّ ذلك الفضاء أنجاد الصحراء الليبيّة قد تواصلت بها الرمال فغطت قسماً من آكامها الصخريّة . وان حوّلت النظر الى الشمال رأيت كثباناً من الرمل تتمثّل فوقها اسوار البهنساء وبروجها ومناورها . ففي هذا القاع وفوق تلك الرُّبى كانت مدينة أُكسيرنكوس او البهنساء القديمة . والحقّ يقال انّ النسّاك الاقدمين لم يكونوا ليجدوا مقاماً احقّ بهم واولى بمناسكهم وتعبّداتهم لما في ذلك القفر من اسباب العُزلة ودواعي التنسُّك مع سعتهِ وقربهِ من المياه والمزدرعات . فمن شاهد المكان لا يشكُّ في ان جماعةً من الرهبان تبلغ عشرين بل ثلاثين الف راهب امكنها ان تعيش فيهِ عيشاً هنيئاً في السكينة والسلام

ثم رقينا هناك ربوةً يُرى فوقها عمود من الصوّان ماثل وهو من بقايا احدى كنائس البلدة فاشفينا على البطحاء كلّها وكانت العين تميّز في الجنوب الغربيّ مقبرة

الاقباط وقبورها المكلَّلة التي تشبه عن بعدٍ قطيعاً من الغنم . وفي الجهة الغربيَّة يرى الناظر في السلسلة الليبيَّة شِعْباً يؤدي الى واح البحريَّة المعروف ايضاً بواح البهنساء . امَّا القبَّة والجدران المتداعية التي كانت تُرى في تلك الجهة على مسافة نحو نصف الساعة فهي بقايا دير قديم كان يُعرف بدير السبع البنات . وفي تاريخ ترجمتهنَّ انَّ احد الفجَّار حاول ان يغتصبهنَّ فالتجينَ الى الله فارسل ملاكاً نقلهنَّ الى هذا المكان فابتنين لهنَّ ديرًا وعشنَ فيه عيشةً صالحة . وكنَّا نرى ايضاً اطلالًا دارسةً زعم الدليل انَّها آثار كنائس قديمة والامر ليس بمستبعد وقد افادنا المقريزي في كتاب الخطط ان عدد كنائس البهنساء كان يبلغ سابقاً ٣٦٠ كنيسة . والشيخ ابو صالح الارمني من كتبة القرن الثاني عشر قد عدَّد خمس عشرة كنيسة في البهنساء في زمانه (١

ثم تابعنا مسيرنا الى الشمال فسرنا مدَّة ثلث الساعة في مدافن يُنزَل اليها بآبار محكمة البناء عمقها ثلاثة او اربعة امتار . وقد استخرج منها اهالي العاديَّات اجساماً محنَّطة بقي في الرمل كثيرٌ من آثارها كلفائفها وعصائبها وقلائدها واسوارها فيها خرز من السَّبَج او الزجاج . وشاهدنا بين هذه البقايا المتحطِّمة عدداً وافراً من الآنية الخزفيَّة وهي مقعَّرة على شكل البواتق وفي قعرها قطعُ ملحٍ متبلورة مشوبة بمادَّة ربداء . ولعلَّ هذه الآنية كان قدماء البهنسيين في ايام عبادتهم السمكة مثومة يتَّخذونها ليجعلوا فيها موميا معبودهم محنطة بالنطرون

واخبر الثقة انهُ قبل زيارتنا للبهنساء بنحو سنة كان قد اتاها باحثان انكليزيَّان احدهما المستر هُنت والآخر الجنرال غرنفل فحفروا في بعض الامكنة واستخرجوا منها سرًّا عاديَّات كثيرة اودعوها في ٢٨٠ صندوقاً وحمَّلوها ستَّة عشر جملًا وكان في جملة هذه العاديَّات اوراق من البردي او البابير وجدوها في حفرةٍ غربيَّ الضيعة

وقد اذاعت المجلَّات العلميَّة خبر هذه الكتابات ووصفها المشرق في سنته الاولى (ص ٣٣٢ و ٥٧٩) وذكر انَّ في جملتها قطعاً من مجموع اقوال الربّ (λόγια) للقديس بابياس تلميذ الرسول يوحنَّا الحبيب (٢ وهي مكتوبة بخطٍّ يونانيٍّ غليظ

---

١) راجع خطط المقريزي (ج ٢ ص ٥١٨) وتاريخ ابي صالح طبعة اكسفرد (ص ٦٢ و ١١٨)

٢) راجع مجموع الآباء اليونان لمين (ج ٢٠ ص ٣٠٠)

يُظن انهُ يرتقي الى القرن الثاني عشر او الثالث عشر

وفي هذا المكان اطلال عديدة لكنائس واديار قديمة تُرى خصوصاً شمالي القرية منها جدران وعقود واعمدة صوأن اكثرها غائص في الرمل . ولحظنا فوق ربوة سبع دعائم مصفوفة كأنها مهيأة ليُجعل فوقها اعمدة لكنيسة . وقيل لنا ان النساء الحبالى من كل الاديان يأتينَ ويصلينَ في هذا المكان فينلن النجاة .

وبعد تجوُّلنا بين هذه الاخربة وصلنا اخيراً الى قرية البهنساء الحاليَّة . ومعنى البهنساء في القبطيَّة « الزواج » . قال الشيخ ابو صالح (ص ٩٤) وسبب تسميتها لأنَّها « بُنيت لجوارٍ من بنات الملوك عذارى تزوجوا (كذا) لابناء الملوك من هذه المدينة »

ومن آثار البلدة الحاليَّة الجامع المعروف بالملَّق وهو محكم البناء جميل الهندسة في سقفهِ نقوش بديعة بالالوان والذهب . وحول الجامع غرف وابنية حسنة لاحقة بهِ . وفي الايوان عمود من الصوأن الورديّ عليهِ كتابة يستفاد منها انَّ السيد الشريف الحاج مصطفى جدَّد بناء هذا الجامع . وفي كتابة أُخرى تاريخ البناء وذلك سنة ١٠٩٢ للهجرة (١٦٨١ م)

وبينما كنَّا نعتبر هذا الأثر الجليل من الهندسة العربيَّة ونبحث عن خواصّهِ اذ سمعنا جلبةً وراءنا . فالتفتنا واذا بعُمدة البهنساء ومعهُ اهل الضيعة وهو ينتهر من رافقنا من اهل سندفة ويخاصمهم لأنَّهم ادخلوا اناساً غرباء الى البهنساء دون رخصتهِ . وكان الفريقان في عياطٍ ومياطٍ فخفنا ان يحصل بسببنا ضرر لرفقتنا ورأينا من الصواب ان نسرع عائدين الى سندفة لقصّ جناح الفتنة . الاَّ انَّنا تمكنَّا قبل خروجنا من زيارة جامع آخر كان الاهلون يشتغلون في ترميمهِ . وهو جامع الحسن بن صالح . وجدنا فيهِ اخشاباً جميلة النقش بديعة الصنع ترتقي الى زمن الدولة الفاطميَّة . امَّا اعمدة الجامع فهي مختلفة الاصل ذات هيئات شتى قدَّرنا انها سبقت ايام الفتح الاسلامي ولعلَّها كانت تزين كنائس قديمة تهدَّمت

(التتمَّة لعدد آخر)

السَجَنجَل

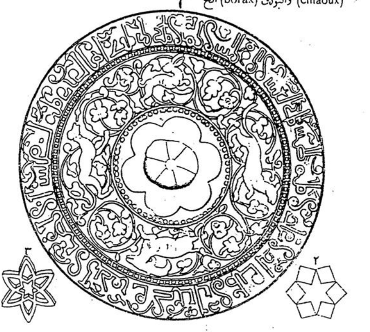
لحضرة الكاتب العالم والباحث المتفنن الاب انستاس الكرملي

قد ذهب اللغويون في اصل هذه اللفظة مذاهب شتى. قال في شفاء الغليل: السجنجل المرآة والزعفران او ماء الذهب. ويقال: زجنجل. معرّب. اه. ولم يذكر الاصل المعرب عنهُ. وقال في محيط المحيط: «السجنجل المرآة والذهب وسبائك الفضة والزعفران. روميّة اه. وذكر صاحب المزهر السجنجل بين الالفاظ الرومية. وكذا فعل الثعالبي صاحب فقه اللغة. وقد وردت في كتاب مرقاة الجاني كلمة السجنجل بين الالفاظ السريانية او العبرانيّة الاصل. وذهب السيد المرتضى والمجد الفيروزابادي وعاصم افندي وغيرهم الى ان اللفظة رومية. وقال الاب هنري لامنس اليسوعي في كتاب الفروق في حاشية ص ١٢١: السجنجل عند اكثر اهل اللغة انهُ روميّ ولا يُعرف لهُ ألّا لفظ « speculum » اي المرآة. فاست التحقّق هذا الاشتقاق لوجود النون في سجنجل وقلب p جيماً. انتهى

والخلاصة ان الآراء متضاربة في هذا الصدد الى انني اخال قد اهتديتُ الى اصلها الاعجميّ على الصورة الآتية: لمَّا كنت يوماً مارّاً باحدى اسواق بغداد المعروفة بسوق الغزل رأيت عند احد الباعة مرائي مختلفة الطول والشكل ومن جملتها طائفة منها مركبة في قطعة خشب ثخينة مستديرة محفور باطنها على شكل مسدّس الزوايا. (انظر الشكل ١ في الصفحة التالية). ورأيت ان من اعراب البادية من يُسمّي هذا النوع من المرايا المسدسة الزوايا: «سَجَنجَلا» والنوع المركب زجاجهُ تركيبا غير هذا التركيب «ماويّة» او «مرآية» فاستغربت هذا التمييز او التقييد وقلت في نفسي: لا بُدّ من ان فيه سرًّا لغويًّا. وبعد ان امعنت النظر في هيئة المرآة رأيتها مسدسة الزوايا. فقلت: لقد اهتديت إذن الى سرّ تسميتها بهذا الاسم فتكون الكلمة معرّبة عن الرومية sexangulum بتقدير speculum ومعنى ذلك: (المرآة) المسدّسة الزوايا. فحُذف الموصوف وبقيت الصفة على ما هو الامر جارٍ في الفاظ كثيرة

امّا قلب الحرف x الروميّ او ξ اليوناني حرفاً واحداً في العربيّة فكان معهودًا عند الاقدمين. قال في شفاء الغليل في شرح لفظة بيمارستان: «... واول من صنعهُ

ابقراط وسمَّاه « أخِشنُدُوكِيُن» قال: ويونانيتها « ξενοδοχεῖον » ومن يتتبع بعض الالفاظ يرَ شيئًا كثيرًا من ذلك الطسق (τάξις) والانبيق (ἄμβιξ) والابريز (ὄβρυζον) وغير ذلك . ومثل ذلك فعل الافرنج فانهم قد نقلوا حرفًا واحدًا عربيًّا الى حرفهم x من ذلك: الطباشير (tabaxir) والشرناق (axirnach) والشاويش (chiaoux) والبورق (borax) الخ



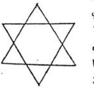
الشكل ١ مرآة قديمة الشكل ٢ و٣ نقوش عربيَّة مسدَّسة

واذ قد ثبت لنا مأخذ الكلمة العربيَّة نقول: امَّا لفظة «زَجَنْجَل» بالزاي في الاول فهو تصحيف السَّجَنْجَل كما ورد مثل ذلك عند العرب سواء في الالفاظ المعربة كالسراط والزراط والسقر والزقر او في العربيَّة الفصحى كاللسق واللزق والبساق والبزاق. ولنا امثال على هذين النوعين تُعدُّ بالمئات الَّا اننا نجتزئ بما ذكرنا

واماً من جهة سائر معاني السجنجل المعروفة عند العرب فهي من باب التوسع

والمجاز والتشبيه . فمن معاني السجنجل عندهم « الفضة » ووجه نقلها الى هذا المعنى بيّنٌ لنا في الفضة من البياض والجلاء ورؤية الصور فيها اذا كانت صقيلة السطح ولأنّ بعض المراني كانت تُتّخذ من الذهب والفضة . ثم انتقلوا من معنى الفضة الى « الذهب » اما للسبب الذي ذكرناهُ آنفاً واما لان الفضة والذهب معدنان اخوان من جهة النفاسة والعزّة حتى ان العرب اطلقوا عليهما اسم « الحجرين » بل ورَى في كثير من الاسماء العربيّة الدالّة على الفضة تدلّ ايضاً على الذهب مثال ذلك : النُضار والتبر والعسجد والصَّيْدَن وهذه للفضّة والصَّيْدان للذهب ولعلّ الاصل في الاثنين واحدٌ . ثم من معنى الذهب الذي تعنيه كلمة سجنجل انتقلوا بهِ الى معنى الزعفران لما بين هذا النبات والذهب من المشابهة في اللون . كما سمَّوا صَرَفاناً (وهو نوع من التمر رزين) النحاس والرصاص للسبب عينه . فصار معنى السجنجل الدال في الاصل على مسدَّس الزوايا : « المرآة والفضة والذهب والزعفران » . قال صاحب التاج : « السجنجل المرآة رومي معرَّب . . . وايضاً الذهب ويُقال سبائك الفضة و قِطَعها على التشبيه بالمرآة . و يُقال الزعفران . . . » . فتأمل في السجنجل : ولا تغفَل عمّا حلّ فيها من الغِيَر والعِلَل . حفظك الله وايّانا من الزلل والخطَل

(المشرق) نشكر لحضرة الاب انستاس افادتهُ عن اصل لفظة السَّجَنْجَل واشتقاقها فلا ريب انّ العلماء يعبرون قولهُ بالا لاسيّما انهُ استند على برهان وضعيّ أيَّد بهِ مقالهُ . وما لا ينكر ان المسدَّس كان يدخل كثيراً في نقوش الهندسة العربيَّة كما ترى في الاشكال التي رسمناها (راجع الشكل ٢ و ٣) . وقد جاء في الفصل الثالث والثلاثين من كتاب يوليوس سالينوس في اثناء ذكرهِ لبلاد العرب انَّهم كانوا ينحتون الزبرجد على الشكل المسدس الزوايا (Beryllus sexangulatus) . وممّا رواهُ العلّامة رينو (Reinaud) في كتابهِ عن الآثار المحفوظة في متحف الدوك دي بلاكاس انَّ المسدس كان يدخل في كثيرٍ من الاشكال السحريَّة عند العرب كما ترى في هذه الصورة ولا غرو اذن ان اتَّخذوا مرايا على الصورة عينها . وفي الشكل الرابع الذي تراهُ في الصفحة ١٥٦ مرآة قديمة عربيَّة في وسطها دائرة مسدسة . لكنّا نستغرب اشتقاق لفظة السَّجَنجل من كلمة لاتينية مع قلَّة الالفاظ العربيَّة المأخوذة من هذه اللغة . ثم في اللفظة اللاتينية الحرف المزدوج x يكون على قول حضرة الكاتب قد نُقل الى الجيم العربيَّة ولا نعرف مثلًا يؤيد ذلك . ولِمَ لا يقال انّ سجنجل منقولة عن العبرانيَّة סגלגל (سَجَلْجَل) ومعناها فيها « المستدير » فان المرايا في الغالب مستديرة الشكل (١ . ثم انَّ بين اللفظتين العربية والعبرانية تشابهاً ظاهراً . هذه ملاحظات نعرضها لحضرة كاتبنا البارع لعلَّهُ يجد فيها بعض الصواب . والله اعلم (ل . ش)



الشكل ٤

١) راجع الصفحة ٩٥ من كتاب فرنكل في الالفاظ العربية الدخيلة

زوّار الليل

للاب لِثنكستون اليسوعي عرَّبها حضرة الخوري اسطفان البشعلاني

كانت جمعيَّة القلب الاقدس المعروفة بجمعيَّة «الاتحاد» قد عقدت في لندن اجتماعها الشهري جريًا على مألوف عادتها في دير «ارلنكتون» فالقى رئيس هذه الجمعيَّة الاب موراي خطابًا بليغًا في هذه المناسبة جعل موضوعهُ «فضيلة الغيرة» فاجاد في ما قال منتهى الاجادة وكان لكلامهِ تأثير عجيب في نفوس الحضور لاسيَّما عند ما جاء على ذكر مكافأة الاشتراك مع المسيح في عمل تخليص النفوس السامي. على ان تأثير هذا الكلام كان اشدّ واقوى في ابنة من صغار الطلبة ومن «الغيورات» في الجمعيَّة اسمها اغنيسة بحيث وقع في قلبها وقوع الكلام المنزل وقد كانت ترى ان عمل تخليص الانفس ممَّا لا تصل اليهِ مداركها لكنَّهُ اصبح عندها بعد سماع خطاب الكاهن مفهومًا بيّنًا لا بل من الامور التي سلبت عقلها واخذت بمجامع قلبها كقمَّة جبل تجلَّت للناظر بعد ان وقعت عليها اشعَّة غزالة الصباح. ومن ثم شعرت كأنَّ قوَّة تدفعها الى القيام بشيء من هذا العمل الخطير لكن كيف وباي طريقة تلك مسئلة بقيت عندها محلًّا للنظر ولم ترَ بُدًّا من مكاشفة الاب موراي بها وعليهِ فبعد اعطاء البركة وقفت تنتظرهُ في ردهة الاستقبال

وكان هذا الاب معروفًا بطيب القلب وبشاشة الوجه ممَّا جعل الاحداث يستأنسون بهِ وكان يعز هذه الابنة التي لم تتجاوز الاثني عشر ربيعًا ويفضّلها على غيرها من اترابها لا لجمالها اذ كان يرى كلَّ ولد جميلًا ولا لصلاحها لانهُ كان اعلى من ان يسيء الظن باحد من أحداث رعيَّتهِ ولا لامتيازها عن اقرانها الطلبة اذ كانت تتساوى عندهُ اقدار الاحداث بل السبب ما رواهُ لبعض الكهنة قال: «كان يعجبني من هذه الابنة مزيَّة واحدة وهي معرفة الالهيَّات الامر الذي ربَّما عجبتَ منهُ والذي اعنيهِ هو انها تفهم حقائق ديانتنا المقدَّسة. وانت ترى ان الرجل الموسيقي يميل الى تلميذ مولع بفنّ الموسيقى والمصور يعزّ تلميذًا اوتي براعة خاصة في فنّ التصوير اذًا فلا بدعَ اذا اعزّ الكاهن تلميذًا اوتي موهبة فهم الامور السرمديَّة»

وقد اختبر الكاهن الفاضل هـذه الموهبة في الابنة المذكورة أيام كان يؤهب الاحداث الى المناولة الاولى منذ سنة وكان جريًا على حميد عادته يقترح على الاولاد استظهار امثولة معيّنة في التعليم المسيحي ويُعنى بتفسيرها لهم بكل دقّة ثم يأذن لكل منهم ان يلقي عليه ما شاء من الاسئلة في الامور التي شرحها لهم. وقد قال الاب موراي ايضًا: «كثيرًا ما كنتُ اندهل من اسئلة هذه الابنة وملاحظاتها الصادرة عن صائب نظر وطول روية واذا شرحتُ قاعدة من قانون الايمان ادركتْ من معناها الغاية واحقق لك انني بعد وقوفي على مبلغ عقل هذه الابنة لم اعد اعجب لعمل القديسة كاترينا التي افحمت من ناصبها من فلاسفة عصرها الخالي في الاسكندريّة»

ثمّ بعد زمن قليل اتى الاسقف ليمنح ابناء رعيته سرّ التثبيت فبسط هذا الاب الغيور لدى سيادته حالة اغنيسة فتبسّم لما رآه من حماسة هذا الكاهن الشيخ واستحسن ان يضاف الى اسمها في التثبيت لفظة كاترينا فسُرّ الكاهن لذلك وقال: «انني لاعجب كيف ان هذه التسمية لم تجرِ في خلدي ولا غرو فان آراء سيادتكم لهي آيات منزلة لان الابنة ككاترين بطهارتها وحكمتها»

ولا بدعَ اذا رأينا هذا الاب زاد اعزازًا لهذه الابنة واذ رآها ذات يوم بادرها قائلًا: «ما حالك يا اغنيسة انك لقد اصبحت اليوم من الغيورات بل من الصادقات في جمعيّة يسوع المباركة فحبذا هذا الفخر ولك مني خالص التهنئة. قالت: اشكرك ابتِ غاية الشكر وانني سأبذل الجهد لتحقيق رغائبك واكون من المحاميات الصادقات على انني جئت الآن ارجو حضرتك الافادة عن شيء ورد في عظتك بالامس. فقال: ما هو. قالت: امر تخليص الانفس فقد حدّثتني النفس بان اقوم بهذا العمل ويعلم الله ما فعل كلامك في قلبي فلم اكن ادري من قبل ما هو تخليص النفوس. قال: ان هذا عمل مقبول لدى القلب الاقدس وانني مسرور لكون كلامي اثّر فيكِ هذا التأثير. قالت: نعم ابتِ وقد وطنتُ النفس على تخليص نفس واحدة على الاقل. قال: انفسٌ واحدة خلا نفسكِ. قالت: نعم وهنا نقطة المسئلة فانني اذا استطعت ان اخلّص نفسًا كنت على ثقة من خلاص نفسي. قال: ذلك لا ريب فيه. قالت: ومن ثمّ صحّ عندي انّ من اخلّصهُ لا يقرّ لهُ قرار حتى يعلم انني على وشك الخلاص ولنفرض — وهنا نظرت الابنة الى الكاهن مبتسمةً — ولنفرض ابتِ انني خلصتُك أفلا تعمل بما في وسعك

على ان تفتح لي باب السماء. فتبسّم الكاهن وقال: من البديهي انني افعل ذلك واقيم الحجّة على القديس بطرس اذا حاول ابقاءك خارج الجنّة

لعمري ان محادثة هذين الصديقين على تفاوتهما في العمر لمّا يبتهج لهُ الخاطر ويقر بمرآهُ الناظر ولا بُدَّ للصداقة كما قال الفيلسوف من وجود التناسب بين الصديقين وترى ان هذا التناسب قد وُجد لسمو مدارك الابنة الصغيرة من الجهة الواحدة ودعة الكاهن الشيخ من الجهة الاخرى ثم قال الكاهن: لقد اصبت يا اغنيسة في الاعتقاد بان الاحسان يقضي على المحسَن اليه بان يعمل كل ما بوسعه لخير المحسِن. قالت: ذلك ما فكرتُ فيه ولا بدع ان مخلصنا الالهي لا يدع عبدًا اكرم منهُ فاذا خلصتُ لهُ نفسًا خلّص لي نفسي. وهذا ما حملني على الرغبة في تخليص نفس واتيتك الآن مستفيدة كيف يتهيأ لابنة مثلي ان تخلّص نفسًا فانك انت كاهن ويتسنى لك تخليص الشعب. قال الكاهن: قد يمكنكِ تخليص الغير بالصلوة وعلى الخصوص مع الآخرين كما هو الغرض من جمعيّة الاتحاد. قالت: نعم غير انني لا اظفر بالضالّة المنشودة وهي ان اخلص نفسًا بمفردي. فاطرق الكاهن هنيهة ثم قال: لقد ادركتُ قصدكِ وهاكِ طريقة الوصول اليه وهي ان تعمّدي طفلًا على خطر الموت في حين ليس من وقت لدعوة الكاهن فان مات الطفل بعد هذا كنتِ على ثقة من ارسال نفس الى السماء. على انهُ لما كان ذلك نادر الوقوع فخير لك ان تصلي لاجل الانفس بالعموم وتسالي الله ان يُوحي اليكِ اذا ما خاص شخص بصلواتك وربّما بقي ذلك غامضًا لديكِ الّا ان اسرار الله وطرقه عجيبة فسلمي الامر الى مشيئته عزَّ وجلَّ وهو يرشدكِ الى الطريقة المثلى. قالت: اشكر لحضرتك الافادة والآن فانني استودعك الله. قال: على الطائر الميمون وبحراسة الله

*

بينما كانت اغنيسة عائدة الى البيت اخذت تفكر في ما قالهُ الاب مرداي وعزمت على ان تتلو كل يوم بعض صلوات لخلاص الانفس غير غافلة عن انتهاز فرصة لتعمّد طفلًا على خطر الموت فاخذت من ثم تعتني بامر الاطفال من جيرانها حتى اكتسبت قلوب ذويهم بلطفها وبذلك تسنّى لها معرفة من تنحصر من هذه الازهار

البشريّة الناضرة ومن لم يتحضّر منها ثم وجهت منتهى العناية الى الصغار غير المتعمدين لتجعلهم اولادًا لله وورثة السماء

فاتفق انها بينما كانت ذات يوم مارّة ببعض البيوت رأت امرأةً ايطاليــة الاصل كانت توطنت حديثًا مع اسرتها ذلك الحيّ ورأت في حجرها طفلًا خُيّل لها بانهُ واحد من جوقة الاطفال السماويّة التي تبدو بكمالها وجمالهـا من فوق قوس بهيج كما تُرى في صوَر المصوّر رافائيل الشهير ولم تتمالك ان هتفت قائلة لتلك الام : تبـارك الله ما اجمل طفلك . وما عتم حتى تمكنت عرى الصداقة على قصر العهد بين الابنة والام وبالمثل بين ذلك الطفل الذي اخذ يزحف مادًّا يديهِ الى اغنيسة الصغيرتين عند ما تهمّ باخذهِ على ذراعيها كأنْ قد أُوحي اليهِ اعجاب الابنة بهِ . وعرفت اغنيسة ان هذه الاسرة كاثوليكيّة وان الطفل لم يعتمد بعد وقد اتى عليهِ من العمر ستّة اشهر فألحّت الابنة على المرأة لتسرع بتعميد الطفل مخافة ان يفاجئهُ لا قدّر الله ما يودي بحياته فيحرم من الذهاب الى السماء ومن صحبة الملائكة الذين يميلون الى مرافقته وهو بمكان من الجمال والظرف . فهذه الكلمات الساذجة بعثت في صدر تلك الام قلقًا وعادت على نفسهـا باللوم على هذا الاهمال وقالت انها ستكلّم زوجها في هذا الشأن

وكانت من نتيجة ذلك ان الطفل صـار تعميده من يد الاب موراي في الاحد التالي وكانت اغنيسة بعد اخذ رضى والديها كفيلة لهُ وبعد انتهاء الحفلة تقدم الكاهن من اغنيسة واثنى خيرًا على مروتها وبيّن لها ان قد نالت سهمًا عظيمًا في هذا العمل المبرور ثم ألمع الى انهُ اذا لم يمت الطفل كما يرجو وجب عليها العناية بتربيتهِ على الدين الكاثوليكي واصبحت مسئولة بالمحافظة على تقويم اخلاقهِ . فهذه المسئوليّة اضعفت شيئًا من عناية اغنيسة بالاطفـال وقالت : ان الاجمل بي ان اصلي لاجل خلاص النفوس واترك البـاقي على الله

واصيل يوم الاحد بعد ذلك بشهر من الزمان كان الاب موراي راجعًا من عيادة مريض وعلى وجههِ علائم الغمّ ودلائل الاضطراب كأنّ امرًا جرى على غير ما يريد . وتفصيل الخبر ان امرأة كانت مرّت بهِ وحدّثتهُ بوجود رجل مشرف على الموت نازل في بعض بيوت ذلك الحي وهو من جَحَدة الدين الكـاثوليكي وطلبت اليهِ ان يدبّر المريض الذي لم يدعُ كاهنًا بالتي هي احسن . فشكر لها هذه العناية ووعدها باتمام ذلك

وما لبث ان انطلق الى منزل الرجل فوجده قد ناهز الخمسين من العمر متوسّداً فراشاً بالياً اصفر الوجه يقاسي اشدّ الاوجاع. وما كاد الكاهن يدخل حتى لحظ العليل فحوّل نظره عنهُ كأنهُ اشمأزّ من منظرهِ. فدنا الاب من فراشه وقد اخذتهُ الشفقة عليه وطفق يلاطفهُ برقيق الكلام مستفسراً عن حالة مرضه ثمّ سألهُ اذا كان كاثوليكياً فاجاب الرجل بنفور: لا لستُ على شيء. قال: ولكن أما كنت كاثوليكياً من قبل؟. قال: مهما كنتُ فلست الآن على شيء. ولا اعتقد بدين من الاديان. فاذ ذاك اخذ الاب موراي يستعمل ما أوتيه من الحكمة والدربة ليضرم في صدر هذا الجاحد شرارةً من الايمان ويبعث بهِ على الرغبة في اسرار الديانة ولكن ذهب تعبه سدًى وبقي ذاك القلب قاسياً كالصخر الاصمّ واخيراً قال الرجل: لا تزعجني فانا لم أدعُك اليَّ ولست بداعٍ كاهناً او مرسلًا سواك ايًّا كان. ولمَّا رأى الكاهن الصالح ان تعبه ذهب ادراج الرياح ترك ذلك البيت ومضى. وهذا سبب ظهور علائم الكآبة على وجهه في حين رجوعه الى منزله. وبينما هو يفكر في هل من وسيلة يستخدمها لرجوع ذاك الضالّ الى الله واذا بصوتٍ عذب نبّههُ من تفكرهِ يقول: اسعد الله مساءَك يا ابتِ موراي. والتفت فرأى اغنيسة تنظر اليه مبتسمةً وكأن قد أُوحيَ اليه على ما يعرض لمن زاول المهنة المقدّسة ان العناية الالهيّة شاءت ان تمنح نعمة الهداية لذاك الخاطئ المصرّ على غيّهِ على يد تلك الابنة الطاهرة فقال: اريد منكِ يا اغنيسة ان تسرعي الآن الى الكنيسة وتتلي بعض صلوات لاجل رجل مارق من الدين عسى الله يمنّ عليهِ بالتوبة ونور الهداية. قالت: سمعاً وطاعة. وتوجّهت الى الكنيسة وسار الكاهن في سبيله وقد سُرّي عنهُ بعض الهمّ وهو على يقين من ان الخاطئ لن يموت بدون الزاد الاخير

*

ان الصلوة لاجل اهتداء رجل خاطئ لم تكن بالامر الغريب لاغنيسة فقد اعتادت ان تذهب في كل احد لتسمع الاب موراي يقرأ قائمة اسماء الذين تُطلب الصلوة لاجلهم استمداداً لنعمة الاهتداء والميتة الصالحة والنعم الضروريّة. فدخلت الكنيسة وتلت بعض الصلوات على نية الاب المذكور وعادت الى بيتها فوجدت والديها بانتظارها في ردهة الاستقبال وما كادت تدخل حتى قالت لها امها: انني كنت احدّث والدك عن ترنيمة جديدة أنشدها الاحداث في قدّاسهم هذا الصباح وقد أعجبت بها غاية

الاعجاب فهل تعرفين عنوانها ؟ قالت : هل تريدين الترنيمة التي مطلعها « اسمعي يا نفسي » ؟ قالت : نعم هي هي . قالت : انها احدى اغاني فابر الشهير وعنوانها « زوّار الليل » ولعمري انها غاية في الحسن ويا ليت عندنا علاماتها الموسيقية . قالت : ينبغي استحضارها فهل تعرفين اسم واضعها ؟ قالت : نعم وضعها ريشردسون . فقال المستر رالي ابو الابنة : انني اشتريت بعض انغام موسيقيّة وقد اعطاني احد الكهنة كتاب اغاني انكليزيّة لاطالعه ولعل فيه علامات الانشودة المطلوبة فاصعدي يا اغنيسة الى غرفتي وأحضري لي الصرّة الموضوعة على الخزانة . فذهبت واستحضرتها وما كاد ابوها يفتح الكتاب حتى رأى كلمات الانشودة وعلاماتها بعينها فسُرّت امرأته لذلك سروراً عظيماً وقالت لابنتها : ينبغي الآن ان تغنّي الترنيمة ليرى ابوك ما اشجاها وانا اعزفها على البيانو . قالت : حسناً ما قلتِ وانما لستُ اعرف منها سوى ثلاثة ادوار . قالت : ذلك يكفي وتقدمت الى البيانو وكان النهار جميلاً والحرّ شديداً فتُحت النوافذ لدخول الهواء النقي فرفعت اغنيسة صوتها وانشدت :

اسمعي يا نفسي انغامَ السما   وقد امتدَّت قُبَيل الغَلَسِ
فوق بحرٍ بالنهار ألتطا   ورياضٍ ذاكيات النرسِ

*

حبَّذا صوتٌ حلا اذ حملا   صادق الاخبار عن ذاك النعيمْ
حيث وجه الله يبدو من عُلى   عرشهِ تبارك الوجه الوسيمْ
لا شقاء لا عنا لا وجلا   بل سلام أبدَ الدهرِ مقيمْ

*

تلك اجواقُ مسيحٍ عَظُما   هبطت ترهو باجمى ملبسِ
انشدت « زوّارُ ليلٍ » نغما   حاويَ الترحاب بادي الانسِ

وقد كان صوت اغنيسة في بادئ الامر ضعيفاً غير واضح تمام الوضوح الّا انها ما تقدّمت بالانشاد حتى اشتدّ الصوت قوةً وتأثيراً مجاوباً لعواطفها التي تنبهت بالكلام والنغم فتحرك ابواها واخذتهما هزّة الشجو والطرب . وما كادت تنتهي من الانشاد حتى تقدمت امُّها المسترس رالي وقد تولّاها الدهش والعجب وهنّأت ابنتها على ما أُوتيت من البراعة في الغناء واذ نظرت الى وجهها ورأت الدمع يجري من مآقيها قالت : ما شأنكِ يا عزيزتي اغنيسة . قالت : لستُ ادري يا اماه وقد شعرت بشيء غريب في اثناء غنائي اذ خيّل لي ان كلمات الانشودة واقعيّة وتمثّلت لعيني صورة

الملائكة ينشدون وكأني بهم يتضرعون الى الله في شان الخاطئ المسكين الذي رغب اليَّ الاب موراي في ان اصلّي لاجله. فقال المستر رالي: من هو يا ترى ذاك الرجل. قالت: لا ادري ولكن الاب موراي قال لي انهُ شخصٌ قد اشرف على الموت وهو في حاجة الى نعمة الاهتداء ولعلي لم اصلِّ لاجله بكفاية فاستأذنكما في الصعود الى غرفتي لاتلو بعض صلوات لاجله. وما كادت تخرج من حضرتها حتى قالت الام: تالله لقد اصبحت اغنية لطيفة الاحساس قال الاب: نعم واخشى ان تصير ألطف احساساً فيناجيها لا قدر الله بعض الامراض وليس عجيباً. ان ابنةً من مثلها تتأثر لكلام أغنيَّة او لتفكرها بموت رجل ممَّا لم تمتَّع مشاهدتهُ وقد خُيِّل لي ان وجهها يلمع وقت الغناء كوجه من ينزل عليهِ الوحي وقد اهتزتْ لصوتها كالشارب الثمل. قالت: و يا عجبي ان ذلك ما حدث لي. قال الاب: هيَّا بنا الآن لننظر الى هذه الانشودة تبارك الله ما ارقَّ هذا النظام واجلى هذا الكلام فلله درُّ الاب فابر من شاعر مجيد وانني سمعت ان لو لم يصرْ كاثوليكيًّا لعدهُ الانكليز شاعر العصر ولا جرم انَّ من اعظم انتصارات الكنيسة في هذا القرن اهتداء هؤلاء العلماء الاعلام والموسيقى الثلاثية الانغام ألا وهم « نيومن ومانينغ وفابر » وقد صحَّ ان الكنيسة الكاثوليكيَّة تستطيع أسر اشرف الناس مهما سمت مداركهم وارتفعت منزلتهم فبحقيقتها فازت بعقل « نيومن » الباهر وبصلاحها الذي لا يُغلَب تغلبت على ارادة « مانينغ » وببهائها اكتسبت قلب « فابر » الرقيق

*

ان الحالة التي يرى المرء نفسهُ فيها بعد نبذ نعمة الله لهي اتعس الحالات واشقاها وهذا المحتضر الخاطئ الذي رفض قبول رسالة الاب موراي عرف الان قيمتها فقد حاول حيناً ان يتستَّر بستار الشك ويتمنَّع بحصون الريب والوهم ولكن ما عتم ان تقلصت هذه الغياهب الرقيقة وتقوَّضت تلك الصروح الواهنة بترديد حملات الاب موراي الصادقة والنقض البيِّن لمزاعم عقلهِ الوهميَّة ورأى ضميره يشكوه وجهاً لوجه لانهُ وهو الرجل الكاثوليكي المولد قد ابى قبول مساعدة كاهن عند احتضاره وبالتالي رفض مقاصد الخلاص وكثيرًا ما حدثتهُ النفس — والنفس أمَّارة بالسوء — ان قد فات الوقت وتوبة المريض مريضة وبهذا اعتراه الفشل وجرَّه الى اليأس او كاد. وكان

انَّ نافذة غرفته تُركت مفتوحةً فدخل منها صوت ولدٍ يغني غناء تعشقهُ النفس ويحنُّ اليـه القلب وقد اتى ذلك الصوت الرخيم بيّناً مفهوماً عند سكون الاصيل حتى سمع الغناء كلمةً فكلمة . فاصغى الرجل شديد الاصغاء تخلصاً من نخس ضميره وصرفاً لذهنه عمّا كان يقاقهُ من الهواجس. فوجد في بادىء الامر شيئاً منعشاً ملطِّفاً في رنين صوت الولد الطاهر الّا ان هذا لم يكن واحسرتاه بالامر المقصود اذ قد اتجه ذهنه الى الترنيمة فتذكر الفاظها وقد كانت هذه ممّا اعتاد ان ينشـدهُ في زمن الصبا وهو بعدُ طفل طاهر في جوقة المرتلين بانكلترة. فساقهُ تصوره الى مراجعة تلك الايام السعيدة فذكرها بعد نسيانهِ وتمثلت لعينيهِ تلك الاقواس البهيجة في الكنيسة القديمة العهد حيث وقف الكاهن في المحراب وقد جثت والدته على مقعدها عن قرب وهو ينشد:

تلك اجواق مسبح عظما هبطت ترهو باجمى ملبس
انشدت « زوّار ليل » نغما حاويَ الترحاب بادي الانس

ولا ريب انهُ كان اذ ذاك اشبه بملاك. ولكن اترى الملائكة تنشد مرحّبة بهِ اليوم لله كيف انقلب. فهطل الدمع الغزير من مآقيه لتفكيره بهـذا واختلط قلبه بالغمّ والاشجان ثم سمع انشاد الدور الثاني:

صوت رنَّ رنيناً قد حلا من بعيد في الدجى وهي تصيح
« يا نفوساً حملها قد ثقلا لا تخافي واتبعي صوت المسيح »
« انهُ يدعوكِ فأتي عجلا كل من يأتي اليهِ يستريحْ »

*

انما الانجيل موسيقى لنا اطرب الصوت بلحنٍ قدسي
انهُ يحدو بنا نحو الحمى جنة الفردوس اشهى مجلس

فهتف قائلاً ان الربَّ يدعوني اليـه فلم يفت الوقت بل لم يزل لي رجاء.. ارحمني يا يسوع مُرني لكي آتي اليك . ثم سمع الدور الثالث:

ودوي من بعيد يُسمعُ كنواقيس دوتْ عند المغيبْ
او بحارٍ موجها لا يهجعُ او حمامٍ سجعت سجع الخطيب
شُغل القلب بهِ والمسمعُ ذاك حقّاً صوت ايسوع الحبيب

*

ايها الراعي الالهي انما انت غوثٌ لضعاف الانفس
فأدرْ خطواتها نحو السما وأعِنها ارشاد روح القدس

ان صوت اغنيـة المحرّك العواطف « كنواقيس دوى عند المغيب » كان لذلك الخاطئ

المحتضر كصوت الراعي الصالح نفسه يدعوه اليه ليرجع الى المرعى الحقيقي فهتف قائلاً: انا آتٍ يا مخلصي الحبيب. وما كاد يأتي على هذه العبارة حتى دخلت اليه تلك المرأة التي ذكرنا انها كانت تمتني به رحمةً واشفاقاً فبادرها قائلاً: ناشدتُكِ الله ايتها المرأة أتيني بالكاهن عاجلاً ليرد اليَّ السلام قبل المات. فاسرعت المرأة وهي لا تكاد تعي من شدة الفرح وبلّغت الامر الى الاب موراي الذي سار من وقته الى جانب فراش المريض واخذ يعزّيه باسرار الديانة الاخيرة. وما اشدَّ ما كان تعجبهُ اذ علم ان الحامل على اهتداء الخاطئ كان انشاد اغنيةٍ لبعض الاولاد الجاورين وللحال طرق فكرَهُ اسمُ اغنيسة. فاستعلم من المرأة عمَّا اذا كانت سمعت الغناء وعرفت المغني فقالت: نعم ومن المؤكد ان الولد ما كان الّا بنت المستر رالي الصغيرة بارك الله فيها ما كان اطرب صوتها. قال: لقد صحَّ ما قدَّرتُهُ فاسرعي يا مسترس موردفي وتكرمي باحضار اغنيسة. ولمَّا اتت اخذها بيدها ودنا بها من فراش العليل قائلاً: هوذا الولد الذي انشد الترنيمة التي سببت لك هذا التأثير. فهتف الرجل وقد اخذ يدها وادناها من شفتيه قائلاً: ليبارككِ الله يا بُنيَّة فبفضلكِ نلت نعمة الرجوع الى ربّي. امَّا اغنيسة التي لم تكن تدري بشيءٍ ممَّا حدث وقفت كالمأخوذة على ان الاب موراي اسرع فاخبرها بالامر وقال: هوذا الشخص الذي رغبتُ اليكِ في ان تصلي لاجله وقد وددت الآن ان تسمعي من فمه ان الله عزَّ وجلَّ قد شاء برحمته ان يسمع صلواتكِ فاذهبي الآن واخبري والديكِ بانني سامرٌ بهما عند رجوعي الى منزلي. حينئذٍ وجَّه انظاره الى المحتضر الذي اخذت قواهُ تنحلّ وتنحط بسرعة فتلا صلوات المحتضرين لاجله واقام عند فراشه يشجعهُ ويعزيه حتى لفظ انفاسه الاخيرة بسلام. واذ ذاك قام وهو مملوءٌ عزاءً يحمد العناية الالهيَّة العجيبة ثم انطلق ليزور آل رالي فوجدهم يتوقَّعون مجيئه بفروغ صبر لان حديث اغنيسة الملتبس سبَّب لهم حيرة. فقصَّ عليهم الخبر اليقين وختم الكلام قائلاً: انني على يقينٍ تامّ ان الرجل مات بتوبة صادقة ولا ريب في انهُ فاز بالخلاص وعليهِ فقد قيَّض الله لكِ يا اغنيسة ان تستحقي اجابة صلواتكِ. قالت: نعم ابتِ تبارك الله جلَّ وعلاَ ان طُرقهُ عجيبةٌ وارى نفسي موعبة من الشكر والحمد لهُ تعالى اذ تفضَّل ومنَّ عليَّ بتخليص نفس. وهنا تكلم المستر رالي فقال: انني بعد امعان النظر في كل ما حدث لا اظن ان اغنيسة نالت وحدها كرامة هذا الاهتداء. بل هناك شريك يشاركها فيه وهو انا الذي استحضرت

الكتاب المشتمل على الترنيمة التي أثّرت بالخاطي. فقال المترس رالي: وانا لا أحرم نصيباً من اجر هذا العمل اذا كنت اول من فكر بالترنيمة وأغريت اغنيسة على انشادها. حينئذٍ قال الاب موراي: لقد احسنتم ايها الكرام في ما نطقتم ولا بد لي من ان أخصّ الاب فابر الذى نظم الانشودة بسهم فهو والحق يقال جدير بالنصيب الاوفر وانا أخشى يا اغنيسة ان لا يبقى لك ألّا اليسير بهذا الاجر. ولكن اغنيسة تبسمت لهذا القول وشعرت بنفسها ان العلي قد استجاب دعاءها وكان قلبها يطفح عزاء وفرحاً

تسريح الابصار

في ما يحتوي لبنان من الآثار

للاب هنري لامنس اليسوعيّ (تابع لما سبق)

٦ انتشار الامّة المارونيّة (تتمّة)

ولمّا كثر عدد الموارنة في القرون الثامن والتاسع والعاشر اخذوا شيئاً فشيئاً في الامتداد الى الجنوب واحتلّوا بلاد جبيل. وممّا يشهد على سكناهم في معاملتي جبيل والبترون مذ ذاك العهد عدّة كنائس سبق لنا وصفها في مقالتنا عن كنائس لبنان القديمة (راجع المشرق ٣: ١٠١٨). وقد لقي الموارنة في تلك النواحي قوماً من اصل البلاد كانوا يسكنون السواحل والوسوط. غير انّ عددهم لم يكن متوفراً. وكان اكثرهم نصارى يتكلمون باللغة الآرامية ويقيمون فيها طقوسهم الدينيّة. وعندنا انّ هؤلاء الآراميين لم يلبثوا ان يمتزجوا بعد قليل بالموارنة امتزاج الماء بالراح كما امتزج بهم ايضاً بقايا المردة والجراجمة الذين تخلّفوا في لبنان. وكانت مهاجرة سكّان وادي الأرنط الى لبنان لا تزال متواصلةً متابعة لمزاحمة اليعاقبة واضطهادهم للموارنة

وكان الملكيّون مع هذا يقطنون بعض قرى لبنان في بلاد البترون وجبيل مثل

كفر شلهان وحدثون (١ وبقسميا (٢ ودوما والقرى المجاورة (٣ نحو كفور (٤ وغرزوز وغيرهما. وكان الملكيَّة في لبنان يتبعون آنئذٍ في فرائضهم الدينية طقس انطاكية اعني على الراجح ليتورجية القديس يعقوب التي ناقضهــا بعد ذلك البطريرك ثاودورس بلسمون (٥ واستبدلها بليتورجيَّــة القسطنطينيَّة. وفي ما خلا ذلك لم يختلف الملكيُّون عن بقيَّة الآراميين في اصلهم ولغتهم. ومما لا ريب فيه انَّ الكتابات اليونانيَّة لنصارى لبنان قليلة جدًّا لا يُعرف منها الَّا كتابتان او ثلاث كتابات. امَّا الكتابات التي ترى على بعض الصور في سيِّدة نايا بكفر شلهان مخطوطة باليونانيَّة فليست هي للوطنيين وانَّما كتبها مصوّرون بوزنطيُّون او مثَّلها الوطنيُّون كما وجدوها في امثلــة بوزنطيَّة قديمة

وبعض القرى التي كان يسكنها سابقًا الملكيُّون نراها بعد ذلك مأهولة بالموارنة. إمَّا لانَّ الموارنة دخلوها فامتزج بهم الملكيون. وامَّا لانَّ الملكيين هاجروها فانتقــلوا الى امكنة غيرها او لاسباب نجهلها

وخلاصة الامر انَّنا اذا استثنينا اليهود نجد في تركيب الأُمَّة المارونيَّة ما نجدهُ في تأليف جميع الامم التي تتركَّب أُصولها من عناصر شتَّى. وكذلك الأُمَّة المارونية اذا اعتبرتها في اواخر القرون المتوسِّطة رأيتها تتألف من اصول مختلفة اوَّلها واعظمها شأنًا الموارنة المهاجرون الى لبنان من سوريَّة الشماليَّة وسوريَّة الوسطى ضوى اليهم قومٌ من الأُباق والطرداء الذين لاذوا بحمى المردة والجراجمة الباقين في لبنان فضلًا عمَّا كان هناك من القطين الاصليين. فهذه العناصر كلُّها تمازجت بعد حين وصارت أُمَّة كبرى ذات لغة واحدة وهيئة واحدة وغاية واحدة لا يمكن الآن اصحاب النظر مهما دقَّقوا في البحث ان يفرزوا جنسيَّاتها الاصلية

فاذا لحظنا نموَّ الأُمَّة المارونيَّة كما تقدَّم واعتبرنا انَّ عدد المواليد يفوق كثيرًا عندهم

---

١) راجع في المشرق (٣: ١٠٢٢) مقالتنا السابقة عن هذين المحلين

٢) تاريخ الدويهي (ص ٢٠٧)

٣) منها كفر حلدا وقد وجدت فيها آثار ابنية للملكيين

٤) راجع كتاب خزائن الكتب في دمشق وضواحيها للاديب حبيب افندي زيَّات (ص ١١٩ الخ) والمشرق (٥: ١٠٤ و ١٠٦)

٥) راجع المشرق (٣: ٢٧٢)

الوفيات لا نعود نستغرب ما ذكرهُ غليلموس الصوري في تاريخ الصلبيين حيث احصى الموارنة اربعين ألفاً. وهذا الاحصاء الاجمالي ينطبق على ما رُوي في تواريخ الاعصار المتوسطة عن الموارنة أنهم منتشرون في جهات طرابلس وبلاد البترون وجبيل والجبّة الى نهر ابراهيم . وهو قول صحيح غالباً مع بعض شذوذ كما سترى قريباً عند ذكرنا لقوم من غير المسيحيين سكنوا في ايالات لبنان الواقعة شمالي نهر ابراهيم

ومما ورد ايضاً في التواريخ الصليبيَّة ذكر مقدَّم ماروني يدعى سمعان تولَّى عينتاب في شمالي سوريَّة (١ ولا نعلم من اي فرقة من الموارنة كان أمن الذين في لبنان او ممَّن تخلّفوا في بلاد العواصم . اما كونهُ من موارنة العواصم فاقرب الى الصواب

ونجد قبل هذا العهد قوماً من الموارنة في بلاد ما بين النهرين اشتهر منهم توفيل ابن توما الماروني المنجم الرهاوي قال ابن العبري في تاريخ الدول (ص ٢١٩و٢٢٠) : «كان رئيس منجمي المهدي . . . . وكان على مذهب الموارنة الذين في جبل لبنان من مذاهب النصارى ولهُ كتاب تاريخ حسن ونقل كتابي اوميروس الشاعر على فتح مدينة ايليون في قديم الدهر من اليونانيَّة الى السريانيَّة بغاية ما يكون من الفصاحة». وكذلك نجد في عبر دجلة بين الموصل وبغداد جماعة من الموارنة ذكرها في القرن الثالث عشر الراهب ريكُلد دي مونكروا (Ricold de Montcroix) وروى ان لها مطراناً يدبّرها (٢ . ولعلَّ قيساً الماروني المؤرخ الذي اسهب في ذكرهِ المشرق (٣ : ٤٥١,٣٥٦,٢٦٥) كان من تلك الجماعة . وعلى كلٍّ لا نرى احداً من كتبة الموارنة ذكر هذا المطران في ما وراء دجلة . وكل هذا دليل على انَّ في تاريخ الأمَّة المارونية اموراً عديدة لم يُحسر بعد عنها اللثام . ومن المحتمل انَّ الكتبة سكتوا عن هذا المطران كما سكتوا عن غيره لانَّ الاساقفة المارونيين كانوا مدَّة الاجيال السالفة كنوّاب للبطرك ومعاونيه دون كرسي خاصّ . وانَّما جُعلت لهم مراكز منفردة في القرون المتأخرة فقط .

١) راجع تاريخ مملكة اورشليم Röhricht : *Geschichte des Königreichs Jerusalem*, p. 220, note 6.

٢) راجع Quatremère :*Mémoire sur les Nabatéens*, p. 149

وكان القرنان الثاني عشر والثالث عشر قرنَي نهوض وترقٍّ في لبنان. وفي ذلك العهد بُنيت كنائس عديدة على طرز خاص تزينها الكتابات السريانيّة وفيها من نقوش الفسيفساء والتصاوير الملوَّنة ما سبق وصنا (١. وفي هذه الابنية دليل على وفرة عدد اللبنانيين وهمّتهم ولم يزل ينمو هذا العدد ويتزايد حتى هاجر قسم منهم الى النواحي المجاورة من فلسطين ولاسيَّما القدس الشريف وكان لهم فيه عدَّة كنائس (٢. وكذلك انتقلت منهم مستعمرات الى قبرس ثم رودوس. امَّا قبرس فقد سكنوها منذ القرن الحادي عشر ونرى لهم في هذه الجزيرة ديرًا (٣ في تاريخ سنة ١١٢٠. وقد نموا نموًّا عظيمًا حتى انهم كانوا يسكنون منها ثلاثين ضيعةً (٤ وكان يرعاهم مطران من طائفتهم. وكان بعضهم في مدن قبرس الكبرى وخصوصًا الماغوصة (٥ وكانت في ذلك العهد واسعة التجارة. امَّا دخول الموارنة في رودس فنظنُّهُ انهُ جرى على عهد الفرسان المعروفين بالاسبيتلار (Les Hospitaliers) لمَّا احتلُّوا تلك الجزيرة فتبعهم الموارنة. وكذلك ذهب قسم منهم في القرن السادس عشر مع فرسان رودوس الى جزيرة مالطة ولحق بهم بعض من اخوانهم من موارنة قبرس في اواخر ذلك القرن. ولعلَّ وجود الموارنة في مالطة ممَّا ساعد على حفظ العربيَّة ونَشرها في تلك الجزيرة. ومن المعلوم انَّ اهل مالطة يتكلَّمون باللغة العربيَّة مشوبةً بالفاظ دخيلة من اللغات الاجنبيَّة

امَّا حلب فيظهر من نصِّ لتوما الكفرطابي ورد في المشرق (٦ : ١١٨) ان الموارنة كانوا فيها منذ زمن قديم لكنَّ اخبارهم في الشهباء مجهولة الى القرن الخامس عشر حيث اتاهم مددٌ جديد من لبنان (راجع المشرق ٥ : ١٠٣٩ في الحاشية الثانية)

ولنعودنَّ الآن الى الموارنة المستوطنين لبنان فانَّهم كانوا في نموٍّ وازدياد يتدون

---

١) راجع مقالاتنا عن كنائس لبنان القديمة

٢) المشرق ١ : ٩٢

٣) راجع سلسلة بطاركة الموارنة للدويهي (الطبعة الثانية ص ٢٢ الحاشية الاولى)

٤) راجع تاريخ قبرس L. Machéras : *Chronique de Chypre*, trad. f. 15,16

٥) وجاء في رحلة يعقوب دي برن (J. von Bern) سنة ١٣٤٦ انهُ وجد الموارنة في هذه المدينة يقيمون رتبهم على طريقة الروم. ولا نفهم ما يعني بذلك المؤلّفُ يريد ان الموارنة كانوا يستعملون اليونانيّة في طقوسهم وهي لغة اهل الجزيرة ؟ فهذا ممكن

شيئاً فشيئاً في النواحي المجاورة. قال الدويهي: «وبسبب ما اشتهر به لبنان اوانئذٍ من الامن والطمأنينة قصدهُ الناس من الاماكن البعيدة (١» التي يهجرها المهاجرون الى قبرس وجزائر البحر المتوسط

ومع هذا النموّ لا نرى الأمة المارونيَّة تتقدَّم الى الامام في القرنين الثالث عشر والرابع عشر. امَّا لاجل مهاجرة قسم منها الى قبرس ورودس كما سبق وامَّا لاجل الحروب التي انتشرت في كسروان في ذلك العهد فبقي الموارنة ما وراء نهر ابراهيم

وهنا لا بُدَّ من تكرار ما قلناهُ غير مرَّة في مقالاتنا (٢ انَّ كسروان ليس من المقاطعات التي اوى اليها الموارنة قبل القرن الخامس عشر. وقد اوردنا نصًّا للادريسي ذكر فيهِ وجود اليعاقبة في جونية (المشرق ١٠١٨:١). وان سأل القارئ ومن كان يسكن اذن كسروان قبل هذا العهد. اجبنا انَّ معظم اهل هذه الناحية كانوا من المتاولة او من النصيريين. وكان النصيريّون قاطنين ايضاً في بعض جهات لبنان الشماليَّة كجهات البترون ونواحي المنيطرة والعاقورة (٣ لكنَّ عددهم الاوفر انَّما كان في كسروان. وقد ذكر صالح بن يحيى صاحب تاريخ بيروت (٤ الغزوات التي باشرها نوَّاب الشام في ايَّام السلاطين الملك الاشرف خليل بن قلاوون والملك الناصر محمَّد بن قلاوون فحاربوا النصيريَّة في جبال كسروان ولم يزالوا يناجزونهم القتال حتى اخرجوهم من كسروان وجعلوا مكانهم قوماً من التركمان على الاقل في بعض النواحي وبقي كثير من المتاولة معهم. هذا وان اموراً كثيرة من تاريخ كسروان لا تزال مجهولة حتى يومنا. الَّا أنَّنا نعلم بلا ريبٍ انَّ النصارى لم يحتلُّوا هذا الجبل قبل القرن الخامس عشر

ولمَّا كانت اوائل القرن الخامس عشر جعل الموارنة يتجاوزون نهر ابراهيم ويصعدون الى كسروان. وكان انتشارهم فيه سريعاً حتى صارت هذه المقاطعة في القرن السابع عشر كلّها لهم. وامتدَّ من ثمَّ الموارنة الى مقاطعتي المتن والشوف. لكنَّنا نقف عند هذا الحدّ لئلَّا ندخل في اخبار قريبة من عهدنا وليست غايتنا كما قلنا ان نسطّر تاريخ لبنان

١) راجع تاريخ الدويهي (ص ١٤٠)
٢) راجع المشرق (٥٦:١)
٣) ولنا في النصيريَّة مقالة افرنسيَّة جمعنا فيها كل ما يختص بآثار النصيريين واحوالهم وسمناها باسم «النصيريَّة في لبنان» ونشرناها في مجلَّة الشرق المسيحي سنة ١٩٠٢
٤) راجع تاريخ بيروت (ص ٤٤–٥١)

بل ان نبيّن بوجه الاجمال كيف انتشرت الأمة المارونيّة . امّا تفاصيل اخبارها فليست الآن من شأننا وقد مرّ منها كثير في ابحاثنا السابقة وسنورد ان شاء الله غيرها في ما بعد (ستأتي البقيّة)

توفير السكّان بتقليل الموتان

لمة صحيّة وطنيّة للدكتور امين افندي الجميّل

قال المسيو بروواردل رئيس مدرسة الطبّ الفخري في باريس: « انّ دعوة الطبيب لم تعُد في الهيئة الجامعة دعوة شفاء فقط بل دعوة وقاية خاصّة ». وهو كلام ينشط الاطبّاء ويبعث فيهم روح الغيرة ليتداركوا المرض قبل وقوعه وينشروا الفوائد الصحيّة المانعة من سريان الادواء والاسقام. وقد سبق لنا في بعض مقالاتنا المدرجة في البشير وفي تقرير عرضناه آخرًا على دولة متصرف لبنان كلام في انماء عدد السكّان بطريقة الزواج وتوفير المواليد وتقليل المهاجرة آفة بلادنا الخفيّة في الاوان الحاضر وذكرنا انّ لهذه الآفة دواء بفتح موارد للرزق وقد قيل : حيث ينبت رغيف ينبت رجل وذلك امّا باحياء الزراعة وانهاض الصناعة وترويج التجارة وامّا بتعزيز الآداب وتحبيب الوطن

واليوم غايتنا ان نبحث في مهاجرة اشدّ خوفًا واسوأ مغبّة تسوق الناس لا الى البلاد القاصية بل الى المقابر فنبيّن طرائق الوقاية منها او على الاقل كسر شوكتها وحصر مضارّها نريد عدّة امراض يذهب كلّ سنة الوف من الناس ضحيّتها فيخلفون من بعدهم الحسرات. وهي امراض لو اتّخذ الاهلون بعض الوسائل السهلة لنجوا من بلاياها وآفاتها المجحفة وازداد عدد السكّان بتقليل الموتان

﴿ الجدري ﴾ انّ اوّل هذه الاسقام المضنية والعلل المفنية الجدري وكلٌّ يعلم ما لهذا الداء من الايادي السود في تاريخ بني آدم فانّهُ ملأ المقابر بفرائسه فضلًا عن شوّه محاسنهم. وكان الناس يخافون الجدري سابقًا اكثر من داء الهواء الاصفر. ولا غرو فانّهُ كان اذا دخل بلدةً اوقف حركة الاشغال وعمّم الفقر ونشر الخراب والموت. وكان الاهلون يلتجئون لاستدراك شرّه الى آفة من جنسه فكانوا يعمدون الى صديد

مجدور ويلقحون به السليم. وهو التطعيم المعروف بالبلدي الّا انَّ هذا التلقيح امات الكثيرين وكان سبباً لانتشار الداء وفشوِّهِ. وظلّت الحال على ذلك الى ان قام جنر الشهير في اواخر الجيل الاسبق فارشدنا الى التطعيم بلقاح يُتَّخذ من جدري البقر فاصاب المرمى وقطع دابر الداء. واكثر البلاد المتمدّنة جعلت هذا اللقاح اجبارياً فنجت من سوء عواقب العدوى. ولو اردنا شواهد على ذلك لوجدناها بالالوف. فانَّ الجدري مثلاً فشا سنة ١٨٧٠ في الجيش الفرنسي ولم يكن التلقيح اذ ذاك جارياً فمات من الجند ٢٣,٤٦٩ رجلاً ثم صار التطعيم قسرياً فلم يبقَ اثر للمرض مطلقاً بعد ذلك

ومن المقرّر الآن انَّ التطعيم المسمَّى عندنا بالافرنجي يقي تماماً من الجدري على شرط ان يجدَّد كل خمس سنوات في الاولاد وكل سبع سنين في الكبار لانَّ قوَّتهُ العاصمة تكاد تتلاشى في آخر هذه المدَّة بسبب تجدُّد الجسم كله. هذا ويجدر بنا ان نستلفت الانظار الى امر مهمّ وهو انَّ الحرَّ في بلادنا يُفسد سريعاً اللقاح البقري فيبطل عملهُ ولذلك الاولى ان يُتَّخذ هذا المطعوم في فصل الشتاء (راجع مقالة الدكتور نمر في المشرق ١ : ٧٠)

﴿ الملاريا ﴾ هي حُمَّى المستنقعات وتُعرف بالبُطاحي من افشى الامراض وارخمها قاعةً تعمُّ البلاد الناطقة بالضاد. امَّا سببها فهو ميكروب افرزهُ لاوَّل مرَّة الدكتور لاڤران اثناء اقامتهِ في جزائر الغرب ومرَّ وصفهُ في المشرق (٤ : ٢٤٣). ويظهر هذا الداء على اختلاف اشكاله من حُمَّى دوريَّة وحُمَّى الغِبّ وحمى الربع في كلّ مكان تستنقع فيه المياه او تأسن بقوَّة الحرارة كما ترى في السواحل البحريَّة وضفاف الانهار

واذا انتشر هذا الداء في مكان لا يبقي ولا يذر. فانهُ فتك فتكاً ذريعاً في الجند الاوربيين لمَّا افتتحوا افريقية والهند فعثَّر بهم القبور وقد قفرت به مقاطعات مأهولة بالسكَّان بل بلاد واسعة كانت تُعدُّ كاتبة في الحضارة والنضارة. وبسلاحه فقط غلب نابليون الاوَّل عسكر الانكليز في جزيرة والشرن (Walcheren) فانهُ اذ علم انَّ اعداءهُ عسكروا عند مصبّ نهر الاسكوت (l'Escaut) حيث تفشو الملاريا امر القائد برنادوت بالَّا يناجزهم القتال بل يدع العدوى تعمل فيهم عملها فما مرَّ على الانكليز عشرة ايَّام حتى بطش بهم الداء ولم يزل في ازدياد حتى قذف الرُّعب في صدورهم

ومنحوا الفرنسيس اكتافهم بعد ان مات منهم الوف. وان حوّلنا النظر الى بلادنا وجدنا كثيرًا من انحائها فريسة الحمّى الملاريّة اكتسبت بذلك شهرة محزنة ضُرب بها المثل كقولهم في زوق: « زوق الخراب عين افرش لهُ وعين غطيه » وفي عتيق: « جاب لهُ الضيق من عتيق » وفي البوشريّة: « يا طالب العافية من البوشريّة » وامكنة أخرى من السواحل وضفاف الانهار بيّنّا في مقالة نشرناها في جريدة الروضة سبب وبائها ووخم هوائها

فان كانت هذه حالة الملاريا وعواقبها السيئة تُرى هل من دواء لهذا الداء. نجيب انَّ هذه الحُمَيَّات تُتَّقى بوسائط عديدة منها ما هو شائع لا ينكر منافعهُ خبير نريد الكينا التي يُعَدّ اكتشافها من اكبر نعم الله نحو عباده

ومنها الاستعمار فان مدنًا كثيرة وضياعًا آهلة كانت قبل توارد السكّان اليها موبوءة رديئة الهواء فصارت بعدئذ عامرة لما كثر فيها السكن. وقد اخبرني المرحوم الدكتور سوكه انَّ قسمًا كبيرًا من بيروت الحاليَّة كان في السابق وبيلًا وخيم المرتع وهو اليوم طيّب الهواء لا اثر فيه للامراض الوبيئة

ومنها الزراعة فانَّها اذا انتشرت في مكان اصلحت تربتهُ لانَّ النباتات عمومًا والاشجار خصوصًا تمتصُّ رطوبة الارض بجذورها وتنقي الهواء بورقها. ومن هذه الاشجار ما هو طيّب الرائحة يعطّر الجوّ بنفحاتهِ وينافي الجراثيم المُعدية كالارز والصنوبر وبالاخصّ الاوكاليبتوس. وهكذا اصلح الرهبان المعروفون بالترابيست محلّات عديدة بالحراثة فطاب هواؤها وزكت غلّاتها. وهكذا اصلح ايضًا اليسوعيّون في البقاع مزرعة تعنايل وكانت قبل ثلاثين سنة عشًّا للحمّيات. فترى ممَّا سبق عظم جناية الذين يقطعون الاشجار فبالحقّ يقال انَّ قطع الارزاق كقطع الاعناق (ويريدون بالارزاق هنا الاشجار)

ومن اخصّ الوسائل لتلافي الحمّى الملاريّة اتلاف البعوض (البرغش) الذي اتّضح منذ زمن قريب انَّهُ بلسعهِ هو العامل الاكبر في نقل حُمّى المستنقعات وهذا لعمري من اهمّ الاكتشافات الحديثة والفضل في تقريرهِ يعود الى الدكتور رونالد روس (Ronald Ross) احد اطبَّاء مدينة ليفربول فانَّهُ درس الامر درسًا خصوصيًّا وانعم فيه النظر ونشر النشرات المتعدّدة المبنيَّة على اختبارات متكرّرة حتى اماط كل شبهة عن وجه الحقيقة. وفي السنة المنصرمة قدَّر العلماء قدرهُ فجازوهُ بجائزة المحسن العظيم نوبل

(Nobel) قدرها خمسة آلاف ليرة افرنسيَّة. وقد ذكر المشرق (٤ : ٢٤٣) ما كان لاحد اهل بلادنا وهو الدكتور عبد الله جبور من حُسن النظر وسبق الاشارة الى هذا الامر الخطير اذ استلفت الخواطر الى وظيفة البعوض في نشر البطاحي برسالة دوَّنها في المقتطف سنة ١٨٨٤. وفي المشرق ايضاً تصاوير تعرّف اجناس هذه الجراثيم وكيفيَّة امتزاجها بالدم نُشرت في مقالة للدكتور الياس الحاج فلا حاجة الى التكرار

والوقاية من هذا الداء بأن تُنشَّف المستنقعات والمياه الآسنة. امَّا الحياض والبرك فتُجعل فيها الاسماك لتأكل صغار البعوض الذي لا ينشأ الَّا في الماء. او يُصبّ على وجه هذه الحياض قليل من البترول فيميت الهوام. وما خلا ذلك تُقفل النوافذ المساء والصباح حين دخول البعوض. وتُتَّخذ الكلل والناموسيَّات وقت النوم. بل صار الفعلة اذا اضطرُّوا الى سكنى امكنة مملوءة بالبطاحي لا يشتغلون الَّا في منازل او خيام تسترها اقمشة ناعمة ينفذ بها الهواء دون ان يدخلها البعوض

ومن اسباب الوقاية من الحمَّى الملاريَّة ان يقضي اهل السواحل لاسيَّما الأُسر الموسرة فصل الصيف في جرود لبنان. لانَّ هذه الحمَّيات تشتدّ خصوصاً في السواحل مع اشتداد الحرّ وتكاد تنقطع في ايَّام البرد. امَّا اعالي الجبل فبعيدة عن هذه المستنقعات لا اثر فيها لجنس البعوض الناقل للملاريا فضلاً عمَّا اشتهرت بهِ من نقاوة الهواء وبرودة الماء وجمال المناظر

﴿ الحمَّى التيفونيديَّة ﴾ هي من اكبر عوامل الدمار ومن اقوى انصار الموت يكفي مجرَّد ذكر اسمها لتجديد لوعات الحزن في قلوب كثيرين من اهل الوطن ومن سكَّان القطر المصري على من نكبتهم بهِ هذه الحُمَّى الخبيثة. من الاحباب وما كاد يبرح عن ذكرنا وباء بيروت في سنة ١٨٩٥. وهذا الداء لا يفتك فقط في المدن وسواحل سوريَّة فانَّ الجبل لا يسلم من آفاتهِ. وفي جوار قريتنا العامرة بكفيَّا مزرعة صغرى تعرف بالدوار تفتك بها هذه الحمى مع طيب هوائها حيناً بعد حين وتميت نخبة رجالها

امَّا العامل الكبير في نقل جراثيم حمى التيفوس فهو الماء ومثلهُ الهواء الاصفر. ومن الشهادات الحديثة على انتشار الحمى بالمياه القذرة ما اقرَّ بهِ الجنرال اندره في جلسة مجلس الشيوخ المعقودة في ٢٥ ت٢ من السنة المنصرمة: « اذا سُئلتُ عن الوفيات بالحمى التيفونيديَّة التي تحدث بين جيوشنا لزمني الاقرار بان سبب اكثرها المياه غير

النقيَّة التي يشربها الجند ». ثمَّ اثنى على المسيو دي فريسينه احد سلفائه لسعيه باعطاء الجند مياهاً نقيَّة او مرشّحات اصوليَّة فقلَّ بذلك عدد الوفيات بهذا الداء في ثكنات كثيرة. قال الاستاذ بروواردل: « انَّ في مئة اصابة بالحمى التيفوئيدية ٩٩ منها يكون سببها الماء ». وهو كلام حريٌّ بالاعتبار وان كان فيه مبالغة بيّنة لاسيَّما نظراً لبلادنا التي كثيراً ما تنتقل فيها جراثيم العدوى بمساكنة المصابين ومخالطتهم في الاكل والشرب واللباس كما ترى بين الفقراء. وممَّن رأيتهم رأي العيان شابٌّ اسمهُ ز. د همتهُ الحمى التيفوئيديَّة في بيروت فعاد الى قريتهِ وفيها توفي. فانتقل المرض الى اخوتهِ الخمسة فذهب باعمارهم ولم يسلم من اهل هذا البيت الَّا الامّ مع ابن لها مكاريكان في الغالب خارج الدار. وقد انحصر هذا الداء في اصحاب البيت المذكور لم يُصب بهِ غيرهم

واعلم انَّ العلم كان يبحث منذ سنين عديدة عن اللقاح الواقي من هذا الداء الذعاف حتى اكتشفهُ آخراً الدكتور شانتمس البكتريولوجيّ الفرنسويّ الشهير. وهو مصل يُحقن بهِ المريض يستخرج من السمّ التيفوئيديّ لا من ميكروب العلّة نفسها. وقد قرأ عنهُ مقالةً في المؤتمر المصريّ الاخير وبيَّن حُسن نتائجهِ

ولا بُدَّ ايضاً من اتّخاذ بعض الوسائط الواقية من شرّ هذا الداء. من ذلك السعي باستجلاب مياه صافية من اصل ينابيعها وحفظها في مجراها سالمةً من كلّ الجراثيم الوسخة بأن تُغطَّى القني على طول ممرّها لئلاَّ يخالطها شيء من الاقذار. وهذا ما امرت بهِ حكومتنا السنيَّة شركة نهر بيروت وما نؤمل اجراؤهُ في نتف تلّ مار يوسف البرج وقناة زحلة التي ستنتهي قريباً

ومن الضروريّ اللازب ان تنهى الحكومة نهياً قطعياً بان تطرح في المياه الجارية الاقذار وسماد الحيوان وعلى الاخصّ الافرازات البشريَّة او تجعل هذه الاوساخ في جوار الينابيع لانَّ الامطار اذا سقطت حلَّتها بما فيها من الميكروبات وجرَّت جراثيمها الى المياه فلوَّثتها

واذاً لا مناص للاهلين من شرب المياه الغير النقيَّة كما ترى في مصر فَلْيلتجأ الى المراشح العموميَّة القانونيَّة (ترشيح الاحواض) على الطريقة التي ذكرناها في كتابنا « قانون الصحَّة » والى المراشح البيتيَّة على طريقة باستور نخصُّ بالذكر منها مرشحة شمبرلان. امَّا ترشيح الماء بالزير كما هو شائع في مصر فاستعمالهُ لا يكاد يفي بالمقصود

﴿ السلّ ﴾ هو الداء العياء والجائحة الجحجنة التي تُتنسي آفات الوغى ونوازل الدهر من المجاعات والقحط والاوبئة اذ انّ السلّ وحدهُ يسبب خمس الوفيات في اوربّة. وقد اخذ الداء يتفشى بين اهل بلادنا لاسيّما مذ سرى بيننا التمدّن الاجنبي الموهوم وعاد الى لبنان المهاجرون الى اميركة. ولا حاجة الى وصف السلّ والكل يعرفون كم هدم من بيوت عامرة وقطع من ارحام موشّجة

للسلّ ميكروب يعرف بيكروب كوخ يسري الى الاجسام المستعدّة لقبوله امّا استعدادًا ارثيًّا يخلّفهُ الابوان للبنين وامّا استعدادًا شخصيًّا به يعرّض الانسان نفسهُ لهذا الداء العُقام سواء كان بارتكاب المنكرات او بالافراط في الاشغال او بانهاك القوى وسوء الغذاء والسهر الطويل والاحزان وكلّ هذه الاسباب قد فتحت في اوربّة بابًا واسعًا لانتشار السلّ. وستصبح لهُ طريقًا بيّنًا اذا تأثّرنا آثارهم في سيئاتهم دون حسناتهم

هذا واني اقرّ انّ هذا الداء اصعب وقايةً من الامراض السابقة لاسباب يطول بيانُها وها انا اذكر سبل الوقاية التي وصل اليها العلم وان كانت لسوء الحظّ غير معصومة (راجع ايضًا في المشرق ١: ١١٩ مقالة الدكتور الفاضل حبيب افندي الدرعوني)

من احسن الطرائق المعروفة للوقاية من السلّ الاستحمام بالشمس فانّ نورها مطهّر عظيم. وكذلك استنشاق الهواء الطيّب بفتح نوافذ متحاذية تجري بينها الريح وتزيل جراثيمها الوبيئة فانّهُ من المقرّر انّ السل يكثر مع وخم الهواء ويقلّ مع نقاوته. ومن اختبارات العلّامة برون سكوار انهُ لقّح بعض حيوانات بالقاح السل الرئوي وتركها تتمتّع بالهواء وبنور الشمس. ولقّح غيرها فحبسها في اكواخ مقفلة فسلم من الداء اكثر الحيوانات الاولى امّا المحبوسة فلم ينجُ منها احد

ومن الوسائط الواقية من الداء العيشة المرتّبة والاغذية القوية لاسيّما اللحم النيّ الذي بيّن فوائدهُ آخرًا الدكتوران البارعان ريشه ولاندوزي. وعليهِ فتكون « كبّتنا النيّة » من المآكل الواقية من السل فبارك الله بها

وممّا يجب ان يعتادهُ الجمهور الامتناع قطعيًّا من البصاق في الارض وبالخصوص في الاماكن العموميّة والمحال الآهلة لانّ بصاق المصابين بالسلّ مملوء من جراثيم التدرّن التي تنتشر في الهواء ومنهُ تتصل الى الصدور والرئات ولذلك ترى في اوربّة الاعلانات

العموميَّة تحذر الناس عن البصاق في الارض. وقانا الله من هذا الداء وقبيح معرَّته

﴿ موت الاطفال ﴾ ان للموت في الطور الاوَّل من حياة الانسان فتكًا ذريعًا تشهد عليهِ الاحصاءات المدقَّقة في البلاد الاوربيَّة والاختبار اليومي في بلادنا. ومن ثم قد وجَّه العلماء نظرهم الى هذا الامر المهمّ واعملوا فيهِ الفكر والرويَّة حتى تحقَّقوا بعد البحث انَّ امثل الوسائل لتقليل موت الاطفال رضاعة الامّ لولدها. وقد راقب الاستاذ بيدن مئة طفل يغتذون بحليب أُمهاتهم ومئة آخرين ممن يغتذون بطرائق أُخرى صناعيَّة ثم كرَّر اختباراتهِ فوجد أنَّهُ في السنة الاولى وحدها من الحياة لا يتجاوز عدد وفيات الاوَّلين اربعة في المئة. بينما يبلغ في الآخرين ٧٠ بل ٨٠ واكثر في المئة على حسب الابتعاد من الطريقة الطبيعيَّة. فاخذ من ثم الاطبَّاء يفرغون كنانة الجهد لتنشيط الارضاع الطبيعي فكتبوا في ذلك الفصول العديدة ونشروا المقالات المسهبة وعلَّقوا الاعلانات في النوادي العموميَّة وانشأُوا الجمعيَّات الخيريَّة وشكَّلوا اللجان الصحيَّة لوقاية هذه الزهور الغضَّة التي منها يتكوَّن رجال الغد حتى ظهر مفعول هذه الحركة المشكورة ففي باريس بعد ان كان عدد وفيات الصغار سنة ١٨٩٢ ثلاثة آلاف وخمسمائة تساقط بعد عشر سنوات حتى لم يتجاوز في سنة ١٩٠١ الفًا وتسعمائة وخمسًا وسبعين

ومن ثم ننشد الله الامهات ان لا يدَّخرنَ وسعًا في ارضاع اطفالهنَّ. ولا يُطعمنَهم قبل الاوان مأكلًا آخر لا تهضمهُ معدهم ولذلك نرى كلَّ امٍّ تخالف ترتيب العناية يقاصها الله بان يكون ولدها ضعيف البنية مهزولًا وربَّما ادَّى فعلهنَّ الى قتل اولادهنَّ وما المسؤول بذلك غيرهنَّ. وليعلم المرضعات انَّ وقت التسنين وفي أيام الحرّ خطرًا اعظم على الاطفال. والحرّ كما لا يخفى يؤثر في وظائف الحياة لاسيَّما الهضميَّة فتكثر الاختمارات والتعفُّنات في حليب الام بعد خروجهِ من الثدي. وكذلك يؤثر في بنية المرضعات قلَّة النوم وغزارة العرق والافراط من اكل الخضرة والفاكهة وشرب المثلَّجات فيتأثَّر الطفل من احوال امهِ وكثيرًا ما يذهب ضحيَّة سوء تدبيرها. قال المسيو برتيلون رئيس قلم الاحصاء في فرنسة: «انَّ ولايتنا الجنوبيَّة البحريَّة التي يشتدُّ فيها الحرّ تخسر خمسة عشر الف ولدٍ في كلّ سنة أيام القيظ بالزيادة عن بقيَّة الولايات» فان كانت الحال كذلك في فرنسة حيث الحرّ اقل والعناية بالاطفال اعظم فما قولنا في سواحل سوريَّة وعموم الديار المصريَّة حيث يحتدم القيظ وتتوقَّد سمائمهُ وتكثر الرطوبة

وتسيل من الجسم مسايل العرق. افليس الى هذا العامل تُنسب في بلادنا وفي القطر المصري خصوصًا كثرة وفيات الاطفال

نعم انَّ لموت الاحداث اسبابًا أُخر لا يمكننا الآن ايضاحها. وقد اكتفينا بالنزر القليل طالبين في الختام منهُ تعالى ان يرشد اهل الوطن الى اتخاذ الوسائل الصحيَّة التي عليها تتوقَّف سلامة البنية ونفي الاسقام. نخصُّ منها بالذكر النظافة والعيشة المعتدلة المنظمة لاسيَّما في الصغر ووقت الشباب. لئلَّا يأكل الشابُّ الحصرم فيضرس بالشيخوخة بل يضرس بسببهِ اولادهُ كما نرى في داء الزهري وفي السكر. وربَّما امتلأ الاناء قبل الشيخوخة فيطفح ويفيض بغتةً وما كلَّ مرَّة تسلم الجرَّة

نظرٌ

في اخصّ العاديَّات المكتشفة آخرًا في سوريَّة

للاب لويس جلابرت اليسوعي

لا يزال قرَّاء المشرق يلحُّون علينا بالسؤال ان نفيدهم عمَّا يستخرجهُ اصحاب العاديَّات من الدفائن المطمورة في بلادهم. ولا غرو فان هذه الكنوز الاثريَّة اصدق شاهد على احوال الوطن السالفة واوثق مؤرخ سطَّر لنا اخبار الغابرين بل خلَّد ذكرها بحفرها في الصمّ الصلاب بحيث قويت على قوارع الدهر وقامت بعد قرون متعددة تخبرنا بلسان حالها عن بعض مآثر الاقدمين

هذا ولا ينتظرنَّ القارئ منَّا ان نتَّسع في هذه الاكتشافات ونطيل فيها الشرح فانَّ ذلك يقتضي مجلَّدات ضخمة ولكن نلخص ممَّا ورد في المجلَّات الاثريَّة الكبرى ما نراهُ حقيقًا بالذكر مفيدًا للمطالعة علَّهُ يثير الرغبة في قلوب البعض بان يدرسوا هذه الآثار درسًا نعمًا ويزيدوا حجرهم في بناء صرح العلوم الشاهق (١

---

١) وكنَّا نودّ ان ندوّن في هذه المقالة شيئًا من اكتشافات بلاد فلسطين لولا انَّ ذلك يؤدي بنا الى الطول. فنحيل القرَّاء الى المجلَّات الفلسطينية الخاصَّة المكتوبة بالفرنسيَّة والالمانيَّة والانكليزيَّة. وفي المجلَّة الكتابية (la Revue Biblique) خلاصة هذه الاكتشافات تصدر في كلّ ثلاثة اشهر

١ عاديّات فينيقية

نبتدئ اولاً بذكر ما وقف عليه العلماء من آثار الفينيقيين لما في اكتشافها من الخطر وعظم الشأن لانّ تاريخ سوريّة في الطور الفينيقي كثير الشبهات قليل الحقائق الراهنة. والعلماء يتلقّون باصوات الفرح كلّ اثر وان صغيراً يسمح لهم بان يسبروا غور هذه الامة العظمى

واعلم انّنا مع مراجعة المجلّات الخصوصيّة قد اتخذنا لنا اماماً في الآثار الفينيقيّة الاثريّ الشهير المسيو كلرمون غانو (Mr Clermont-Ganneau) وقد حاز في اكتشاف هذه الآثار قصبة السبق فتراه مع وصفه بقيّة الخزفيّات الشرقية وكتاباتها عنها لا يزال يفرد الفصول المطوّلة للمآثر الفينيقيّة وفكّ اسرارها وبيان فوائدها

١ (انصاب امّ العواميد) من اعظم الاكتشافات الفينيقيّة التي اكتشفت المسيو رنان شيرته آثار امّ العواميد (١ او امّ العمد وهي قرية صغرى قريبة من البحر جنوبيّ صور عند مصبّ وادي حمول. وقد نالت هذه العاديّات شهرة جديدة باكتشافات مستحدثة متوالية جرت آخراً. واهمّ هذه الخزفيّات نصبٌ جميل من القرن الثاني قبل المسيح عليه كتابة ونقوش. امّا الكتابة فلا تزيدنا علماً كبيراً على ما كنّا نعرفهُ سابقاً من احوال فينيقية على عهد البطالسة وامّا النقوش فهي غاية في الغرابة كما سترى

وقد جاء في الكتابة الفينيقية ما معرّبهُ: «هذا النصب ذكرٌ لبَعَلْيَتن بن بعليتن الربّ» فلا يستفاد من هذا الكلام الوجيز شيء. يُذكر لانّ اسم «بعليتن» علم معروف. والربّ بالآرامية العظيم والسيد. ولعلّ هذه اللفظة تدلّ على رتبة بعينها لم نعرف حقيقتها حتى يومنا

امّا النقوش التي ذكرنا خطر شأنها فانها تمثّل قرص الشمس مجنّحةً على جانبيها علامتان رمزيّتان على شكل الحيّة تُدعيان اوريوس (uræus) ومن تحت هذه النقوش صورة ناتئة لرجل غير ملتحٍ يُرى راسهُ من الجانب الايمن وثلاثة ارباع شلوهِ المكسور وهو لابس رداء طويلاً واسع الطيّات مشدوداً بمنطقة خفيّة ونازلاً الى

---

١) راجع كتابنا بعثة فينيقية (ص ٦٩٤–٧٥٠ مع التصاوير ع ٥٠–٥٨)

القسم الادنى من جسمه . ويده اليمنى مبسوطة الى الامام على علوّ ذقنه كما كان القدماء يصوّرون السُّجَّد . امَّا الشمال فبها يمسك صورة ابي الهول المصريَّة وابو الهول هذا متوَّج باكليليه المعروفين وبين مخالبه مجمرة يُحرق فيها الطيب (١

وللرجل الذي وصفناهُ قلنسوة مستديرة متوسّطة الكبر مائلة الى الخلف على شكل التماثيل التي تُرى في مدافن تدمر. ومن اسفل القلنسوة من وراء الاذن تخرج خصل قصيرة من شعرهِ تغطّي عنقهُ الثخين البارز من اعلى ردائهِ المفتوح. ومن انعم النظر في وجه الشخص وجدهُ محلوق العارضين والشوارب وتحقق انهُ رجل مُسنّ قويّ الالواح شاحب اللون ذو هيئة حيَّة مؤثرة يكاد ينطق بفيهِ

وهذه النقوش العجيبة التي تشبه بدقّتها الصور المصريَّة المكتشفة حديثًا في نواويس الفيوم فوق رؤوس المومياء تمثّل لنا صورة احد الفينيقيين في ذلك العهد المعهد وتفيدنا عن سحنة اهل ذلك العصر ولبسهم مع كثير من احوالهم

وما مرَّ على هذا الاكتشاف زمن قليل حتى شفعهُ اكتشاف آخر لانصاب جديدة وجدت في امّ العواميد افاض في ذكرها المسيو هوزي (Mr Heuzey) في الجلسة التي عقدتها في ١١ نيسان سنة ١٩٠٢ اكدامية الكتابات والفنون . وبين هذه الانصاب والنصب الموصوف آنفًا تشابهٌ ظاهر وان كانت دونهُ في دقّة الصناعة (٢

والاثر الاوَّل يمثل تمثيلًا غير متقن شخصين احدهما رجل لابس لبس الفينيقيين والآخر امرأة مقنّعة على هيئة نساء اليونان

وقد وصف المسيو هوزي تمثالًا آخر اكتُشف في المكان نفسه فيه صورة رجل فينيقيّ يُرى اعلى جسمه الى منطقته وهو في لبسه وهيئته وحركاته كمثل الشخص المصوَّر في نصب المسيو كلرمون غانو

وذكر الموما اليه دميةً ثالثة وهي امرأة منتصبة على هيئة السجود تشملها ملاءة تنحدر من اعلى راسها الى اكتافها بزيّ حسن. وفي القسم الاسفل من هذا الاثر

---

١) راجع المجلّة الاثريّة (RA., 1902, I, 200-207 et Pl.XXXI) ثم مجموع الآثار الشرقيّة (RAO, V p. 1-8, Pl. I et II; 87-86 Pl. V)

٢) راجع المجلّتين السابقتين (ص ٢٠٢ و ٥: ٨٦)

امرأتان عليهما مئزران الى ما فوق صدرهما كعادة المصريات قديماً تراهما جاثيتين على الركب الواحدة بازاء الاخرى وبيد كل منهما اناء بلا عُرى تصبّان منهُ الماء على نبات مقدّس غُرس في وسطهما

وقد عُني المسيو هوزي بشرح اسرار هذه الانصاب الثلاثة ودقّق البحث عن كلّ قسم منها وقابلها مع الآثار المعروفة قبلهُ ليستخلص منها معانيها الخفيّة ومع افراغه مجهودهُ في ذلك لم يتمكّن من حلّ رموزها. لكنّهُ بيّن انّ في صناعة هذه التماثيل مسحةً من فنون المصريّين والكلدان واشاراتٍ الى عقائد تينك الامّتين فضلاً عمّا يلوح فيها من الطرائق التصويريّة الجارية عند اليونان واهل آسية

ومع هذه الانصاب التي وصفنا للمسيو هوزي انصاب اخرى قد ذهبت رسومها وامّحت تصاويرها وُجدت في المحلّ ذاته وهي اليوم في متحف اللوڤر. وكلّ هذه الانصاب غفلٌ لا كتابة عليها وانّما وُجد معها حجارة اخرى فيها اربع كتابات فينيقيّة جدّ المسيو هوزي في تفسيرها مع احد رصفائهِ. ثمّ عاد المسيو كلرمون غانو واعمل فكرهُ النقّاد في هذه الآثار فحسّن واكمل واصلح الخلل لاسيّما في احدى الكتابات التي قرأ مضمونها على هذه الصورة: «لبعليتن ابن عبد هور ملك عشترت (١ »

ولو اردنا ان نلخص كلّ ما كُتب عن هذه الآثار لطال بنا الكلام فاكتفينا بالاشارة ليعرف القرّاء كم يسعى الاثريون الفرنسيّون في تعريف الآثار الفينيقيّة

٢ (هيكل اشمون في صيداء) بلغ مسامع صاحب السعادة حمدي بك متولي نظارة المتحف العثماني في الاستانة العليّة انّ بعض الاهلين اجروا في جوار صيداء حفرًا خفيًا على غير نظام استخرجوا بهِ بعض الكتابات الفينيقيّة. فكتب للحال الى جناب مكريدي بك وهو اذ ذاك في بعلبك ينظر باسم الحكومة السنيّة اعمال البعثة الالمانية ووكل اليه بان يبحث عن اصحاب هذه الحفريّات غير القانونيّة واذا استصوب الامر بان يجري بنفسهِ في صيداء حفرًا منتظمًا لعلّهُ يجد آثارًا أُخرى يُرسلها الى المتحف العثمانيّ العامر

---

١) راجع المجلّة الاثريّة (R A, 1902, Mars-Avril, p. 200 — 206) ومجموع المسيو كلرمون غانو (R A O, V. 85 et 148-156)

فاسرع مكريدي بك الى صيداء. وبعد البحث اللازم تحقق صحة الخبر وباشر الحفر على مقتضى الاصول الهندسية لئلّا تتلف الآثار بسوء العمل وقد اسعده الحظ على وجود هيكل جميل يعرف بهيكل الاله اشمون ولمّا انتهى من الحفر ارسل تقريرًا بيّن فيه ماجريات العمل ونتائجهُ ومع التقرير رسوم وتصاوير للعالمين الالمانيين شولتس (Schultz) وكرنكر (Krencker). ونحن نختصر هنا هذا التقرير مع ما كتبهُ عن هذه الحفريات حضرة العلاّمة الاب لكرنج الدومنيكي في المجلة الكتابية والمسيو كلرمون غانو في مجموعهِ الشهير للآثار الشرقية والمسيو فيليب برجه (Ph. Berger) في مقالة نشرها في مجموع الكتابات والفنون (١

وموقع هذا الهيكل في البستان المعروف اليوم ببستان الشيخ على منعطف ربوة فوق وادي نهر الاولى قريباً من مصب هذا النهر على مسافة نحو كيلومترين و ٣٠٠ متر شمالي صيداء. فكان اذن الهيكل المذكور خارجاً عن المدينة مهما بولغ القول في اتساعها القديم. وهو يتركب من سور مربع مستطيل بُني بنحيت الحجارة وحجارتهُ ضخمة محكمة الوضع. وكان السور المذكور موازيًا لاربع نواحي المعمور طولهُ من الشرق الى الغرب نحو ٦٠ مترًا وعرضهُ من الشمال الى الجنوب نحو ٤٤ مترًا. وهذا السور كان يدعى الحَرَم كما يُرى في اكثر معابد الساميين ومثلهُ في القدس الشريف وفي الشيخ بركات وفي حصن سليمان. وفي وسط السور كان القدس او مقام الالهة وحولهُ ساحة متسعة. وهذا القدس لم تكتشف حتى الآن آثارهُ. لانَّ الحفر لم يتمّ بعد ولكن لا شكّ في وجوده

وممّا يزيد هذا الاكتشاف شأناً كتابات فنيقية تجدينا عدّة فوائد لتاريخ فنيقية. ومن غريب الامور انّ هذه الكتابات لم تكن على وجه الحجارة الظاهر بل على وجهها

(١ راجع Macridy Bey: *Le temple d'Echmoun à Sidon* (RB., 1902, p. 488-515 et 1903, p. 69-77 = R. P. Lagrange : *Notes sur les inscriptions trouvées par Macridy Bey* (Ib. 1902, 515-527) = Clermont-Ganneau : RAO., V. p. 217-276 = Ph. Berger : *Mémoire sur les inscriptions du temple d'Esmoun à Sidon*, Extrait.

الخفي الواقع فوق الحجارة السفلى بحيث لم يمكن الاطلاع عليها الّا بنقض الحجارة والفصل بينها. وقد استدلّوا بذلك على انّ الكتابات التي شاعت قبل الحفر القانونيّ والتي كان العلماء في ريب عن صحّتها انّما هي صادقة. وهذه الكتابات كلّها عبارة عن نُسخ متعدّدة لنصّ واحد الّا انّ بعضها اكمل من البعض على قدر الحجارة. وعددها ستّ كتابات او سبع .

وقبل ان نذكر مضمون هذه الكتابة لا بُدّ ان ننبه القرّاء على مناظرة جرت بين العلماء. فانّ بعضهم وفي مقدّمتهم المسيو فيليب برجه يزعم ان الهيكل وابنيتهُ يرتقي الى عهد الكتابة وتاريخها. ويزعم غيرهُ وهو الرأي المرجّح انّ هذه الكتابات اقدم عهدًا من الهيكل وانّما كانت في هيكل سابق ظاهرة في واجهته فلمّا خرب الهيكل الاوّل اتُّخذت موادّه لبناء هيكل جديد فنُضّدت الحجارة على هذه الصور غير القياسيّة

وان سألت الآن عن مضمون الكتابة قلنا انّ فطاحل العلماء تسابقوا في فكّ مشكلاتها نخصّ منهم بالذكر حضرة الاب لكرنج والمسيو كلرمون غانو والمسيو فيليب برجه فسّروها كلٌّ واحد وحدهُ دون ان يطّلع على تفسير الآخرين . الّا انّ مقالة كلرمون غانو ظهرت بعد مقالة رصيفيه فنأخذ تفسيرهُ ثمّ نعود الى الاختلاف الذي بين شرحه وشرح العالمَين الآخرين. قال انّ في هذه الكتابة ثلاثة اقسام نشير اليها بثلاثة حروف الابجديّة (ا ب ج) :

ا { الملك بُدعشترت ملك الصيدونيين
حفيد الملك اشمنزر ملك الصيدونيين

ب { بصيدون-ابحر
بشمم رمم
بارض رسفم
بصيدون مشل
التي بناها (؟)
وبصيدون البر

ج { بنى هذا الهيكل (كلّهُ ؟)
لمعبودهِ اشمون سار قدش

ففي هذه الاقسام الثلاثة (اب ج) قد اتّفق العلماء على شرح القسمين الاوّل والآخر (اج) الّا القليل وفيهما معنًى تامّ . اما القسم الثاني (ب) فالآراء فيه متضاربة . فان المسيو برجه شرحهُ هكذا : « بصيدون البحريّة خاصّة السماوات العليا ارض الرسفيم صيدون المالكة » وقد فسَّرهُ حضرة الاب لكرنج بنوع آخر فقال : « بصيدون في يوم شمم رمم اب صيد الذي هو صيدون كما بناها صيدون الملك » فترى ما بين الروايات الثلاث من الاختلافات الذي لا نتعرَّض للحكم بينها . وقد اتى آخرًا المسيو هالفي (Mr Halévy) بشرح رابع في المجلّة الساميّة (١٩٠٢ ص ٣٤٧—٣٦٧) فزاد الامر التباساً

ومهما كان من امر هذا القسم الثاني فانّ ما تقرَّر وثبت من قسميها الآخرين غاية في الاهميّة لتعريف سلسلة ملوك صيداء الفينيقيين . وقد كان سعادة حمدي بك نهج الطريق لبيان هذه السلسلة باكتشاف ناووس احد ملوك صيداء وكانت عليه هذه الكتابة التي حلّها المسيو فيليب برجه (١ : « انا تبنيت كاهن عشترت وملك الصيدونيين ابن الملك اشمنعزر كاهن عشترت وملك الصيدونيين الضّجع في هذا الناووس . . . » فالكتابة الجديدة التي نحن في صددها تؤيّد صحّة كتابة ناووس الملك اشمنعزر الذي اكتُشف سنة ١٨٥٥

ومن الاكتشافات القديمة كنّا نعرف انّ اشمنعزر (الاوّل) ولد تبنيت وعمشترت فتزوّج تبنيت اختهُ عمشترت فولد لهما ابن يدعى اشمنعزر (الثاني) . ثمّ يؤخذ من الكتابة الحديثة انّ « بدعشترت هو حفيد اشمنعزر » . فتُرى ايّ اشمنعزر هو المراد ألاوّل او الثاني ؟ . فقد ارتأى المسيو برجه والاب لكرنج بان المراد هو اشمنعزر الثاني . ولكن اذ كان لا يُنكر ان اشمنعزر الثاني مات في الرابعة عشرة من عمرهِ بلا ذرّيّة قالا ان بدعشترت ليس حفيدًا لاشمنعزر الثاني بل هو ابن عمهِ . اما المسيو كلرمون غانو فانهُ يرتأي بخلاف ذلك ان بدعشترت حفيد اشمنعزر الاوّل وهو يجعلهُ

---

١) المجلّة الاثريّة .R A. 1887, II, 109 فترى الطف سعادة حمدي بك الذي نشر خبر اكتشافهِ لاوّل مرّة في مجلّة افرنسية وكذا صنع آخرًا جناب مكريدي بك . وبذلك يظهر جليًّا ما بين علماء دولتنا العليّة والعلماء الفرنسيين من الصلات الحسنة . وزد على ما تقدم انّهُ برز في العام الماضي كتابٍ عن « مدفن صيداء الملكي » (La Nécropole royale de Sidon) نشرهُ حمدي بك بعمّة ت . ريناخ

ابنًا لا لتبنيت لكن لاخ لهُ بجيول لم يملك فتولى ابنهُ هذا بُدعشترت زمام الملك بعد اشمنعزر الثاني المتوفَّى صغيرًا كما ترى في هذا الجدول:

اشمنعزر الاوَّل
كاهن عشترت وملك الصيدونيين

تبنيت
كاهن عشترت وملك الصيدونيين

يقترن باختهِ . . . عَمعشترت
كاهنة عشترت
ووصيَّة الملك في صغر ابنها

اخ بجيول
لم يملك

اشمنعزر الثاني
ملك الصيدونيين مات حدثًا ولهُ ١٤ سنة

ابنهُ بدعشترت
ملك الصيدونيين يتولَّى الملك بعد اشمنعزر الثاني

فهذه السلسلة لملوك صيدون تسدُّ خللًا كبيرًا في التاريخ اذ تعرّف تعريفًا اكمل واتم دولة اشمنعزر وسلالتهُ من بعدهِ. امَّا زمن هذه الدولة فقد اختلف فيهِ الكتبة وكانوا يظنُّون سابقًا انَّهم ملكوا في القرن الحادي عشر قبل المسيح. ثم جاءت الاكتشافات الاثريَّة فبيَّنت بطلان هذا الزعم حتى قال البعض ان هذه الدولة تولَّت زمام الملك على صيدون بعد الاسكندر اعني بين سنة ٣٣٢ و٢٧٥ قبل المسيح (١ ثم اعاد العلماء النظر في هذا الامر. واليوم عاد العلماء فبحثوا بحثًا ادق في الامر واستنتجوا انَّ اشمنعزر وذريتهُ سبقوا عهد الاسكندر اعني ملكوا في القرن الرابع او الخامس من قبل المسيح (٢

هذه نبذة وجيزة تنبئ القرَّاء بما حصل عليه علم العاديَّات الفينيقيَّة من الترقي في العام الماضي. وقد بقي علينا ان نبيّن ما اكتُشف في العام نفسهِ في بلاد الشام من العاديَّات اليونانيَّة والرومانيَّة ننشرهُ في عدد آخر ان شاء الله (لهُ بقيَّة)

---

١) هذه نتيجة مقالة للمسيو فيليب برجه عنوانها: « L'archéologie et l'épigraphie » طبعها سنة ١٨٧٧

٢) وهو رأي فيليب برجه في مقالتهِ الحديثة ورأي حضرة الاب لكرنج في المجلَّة الكتابيَّة (R B., l. c., p. 521-525)

مطبوعات شرقية جديدة

ܠܟܣܝܩܘܢ ܣܘܪܝܝܐ ܕܒܪ ܒܗܠܘܠ

معجم الحسن بن بهلول بالسريانيّة

Lexicon Syriacum auctore Hassano Bar Bahlul

e pluribus codicibus edidit et notulis instruxit

Rubens Duval. *Parisiis*, 1898-1901

انّ نطاق الدروس السريانيّة لا يزال كلَّ يوم يتّسع اتساعاً اعظم بقدر ما يستخرج العلماء من كنوز هذه اللغة المدفونة فينشرونها بالطبع. وقد امتاز بين انصار السريانيّة احد المستشرقين الفرنسويين المسيو روبنس دوڤال فاحرز لهُ اسماً طيّباً يُثني عليهِ بالخير كلّ محبي الآثار الآرامية. ومن التآليف التي يعود اليهِ الفضل بنشرها هذا المعجم السريانيّ الذي طالما تشوّق الادباء الى الاقتباس من فرائده ألا وهو معجم الحسن ابن بهلول الاوانيّ الطيرهانيّ الذي صنّفهُ في اواسط القرن العاشر. وُلد المذكور في اوانة من قرى تكريت ودرّس مدّةً في بغداد وألّف كتابهُ بعد مراجعة المعاجم السريانيّة التي سبقت زمانهُ اخصّها معجم حنين بن اسحاق ومعجم ابي يحيى زكريّا المروزي ومعجم عيسى بن عليّ تلميذ حنين فجمع فوائدها الشتى وادرج فيها الالفاظ الدخيلة في السريانيّة لاسيَّما المنقولة عن اليونانية. ومن خواصّ كتابهِ انهُ دلّ على الموارد التي اخذ عنها وزاد عليها الفاظاً وشروحاً بالسريانيّة والعربية لم يسبقهُ اليها غيرهُ. وكانت خزائن الكتب الاوربيّة تصون عدداً وافراً من نسخ هذا المعجم مسختها ايدي النسّاخ وزادت عليها ونقّصت فراجعها المسيو دوڤال وقابل بينها بعد العناء الطويل والشغل الشاغل حتى انتهى من عملهِ بعد اربع سنوات ونشرهُ في مطبعة باريس العموميّة في نحو ٢٤٠٠ صفحة. ولم يكتفِ بنشرهِ بل صدّرهُ بالمقدّمات المفيدة والحقهُ بالفهارس الواسعة وحشاهُ بالحواشي التي تشهد لهُ بطول الباع في معرفة اللغة السريانيّة. فنشكر هذا العلّامة الفاضل باسمنا وباسم كلّ الطوائف الشرقيّة السريانيّة على الخدمة الجليلة التي ادّاها لآداب السريان ومعارفهم بنشرهِ هذا المعجم ونحضّ كلّ من يريد إحكام هذه اللغة ألّا يحرم نفسهُ منهُ

كتاب
تاريخ بيروت

واخبار الامراء البُحتُريّين من بني الغَرب لصالح بن يحيى

سعى بنشرهِ وتهذيب عبارتهِ وتعليق حواشيهِ الاب لويس شيخو اليسوعي (١٩٠٢ ص ٣١٥)

ان من طالع اعداد السنتين الاولين من مجلّة المشرق امكنهُ ان يتحقّق ما يحتوي هذا الكتاب الفريد من الفوائد الجمّة عن تاريخ بيروت ومقاطعات لبنان الغربيّة كالغرب الاقصى والغرب الشمالي والغرب الاعلى وما يليها من النواحي كالشحّار والمناصف والعرقوب. وممّا يزيد هذا الاثر خطرًا انّ كاتبهُ صالح بن يحيى صنّفهُ في زمن لم نكد نجد فيه ذكرًا لبنان في غيرهِ من المؤرخين واستند في روايتهِ الى اصدق الموارد واحقّها بالاعتبار وهي المناشير السلطانية والكتابات الرسميّة التي وقف عليها بين آثار اسلافهِ. فجمعها في هذا الكتاب وجعلهُ تذكرة لامراء الغرب وقد كتب ما كتب بسذاجة لم يتحرَّ بعملهِ سوى افادة أُسرتهِ الشريفة ومراعاة حقوق التاريخ « فلم يكن (كما قال في فاتحتهِ) مغاليًا في السلف فيصفهم بازيد مما فيهم ولا حسودًا فينعتهم بما ليس فيهم ».

وكان المؤلف اراد ان تبقى هذه التذكرة « كوقف على البيت لا تخرج عن الخلف ولا تُعار لغيرهم » لظنّهِ « انّ لا احد ينتفع بها غير اربابها ». فكان الامر على خلاف ما ظنّ واسعدنا الحظ على استخراج هذه الدرّة اليتيمة من صدفتها تزيد خزانة كتب باريس حيث نقلها تيّار الدهر فنجت من ايدي الضياع. وقد نشرنا هذا التأليف تباعًا في المشرق وعلّقنا عليهِ التعاليق الموسعة التاريخيّة والجغرافيّة واللغويّة ليعمّ بذلك نفعهُ وتظهر فوائدهُ. ثم خفنا ان يصعب النظر فيه وهو متفرّق في اعداد المجلّة فجمعناهُ في مصنّف مستقلّ على حجم اصغر واضفنا اليهِ ثلاثة ملحقات اوّلها منقول عن تاريخ ابن سباط تتمةً لاخبار بني الغرب. والثاني مدارهُ عن احوال بيروت من عهد المؤلف الى أيامنا. امّا الملحق الثالث فهو يتضمّن استدراكات وفوائد مع اربع فهارس تيسيرًا لادراك مطالب الكتاب هذا فضلًا عن رسمين يزينانهِ احدهما شجرة نسب بني بحتر امراء الغرب والآخر رسم خارطة بلاد الشوف وخصوصًا بلاد الغرب نقلًا عن خارطة للمهندس البارع عزتلو يوسف افندي افتيميوس

﴿ خلاصة اعمال شركة القديس منصور دي پول في بيروت عن سنة ١٩٠٢ ﴾

هي السنة الثالثة والاربعون لعهد تأسيس هذه الشركة المقدَّسة ومن راجع برنامجها الجديد تحقَّق انّها لا تزال راقية معارج التقدُّم والنموّ بهمَّة رئيسها الهمام الفيكونت فيليب دي طرازي وبحسن مساعي أعضائها العاملين في دوائرها الخمس. وقد نالت في العام الماضي التفاتًا خصوصيًّا من مكارم قداسة الحبر الاعظم الذي قدَّر اعمال الجمعيَّة قدرها ونشَّط ذويها بمنحهم البركة الرسولية. ومن مضمونات البرنامج في هذا العام فضلًا عن الداخل والخارج لمحة من ترجمة السعيد الذكر البطريرك بطرس الرابع الجريجيري مع سيرة رجل الخير فردريك اوزنام منشئ شركة القديس منصور دي پول. فنهنئ الجمعيَّة ونتمنَّى لها كلَّ نجاح ل. ش

مطبوعات أُرسلت الى ادارة مجلة المشرق

1 La science de la religion et la science du langage d'après Max Muller. par F. Prat. s. j.. *Louvain*. p. 28, 1901.

2 Les fêtes Mariales de 1901. réflexions et projets par R. N. de la Broise et A. du Bec-Boussay. *Extraits des Etudes* 1902.

3 Guérison subite d'une fracture. récit et étude scientifique (p. 48)

وهو بحث علميّ ثلاثة اطبَّاء بلجكيين عن شفاء عجيب حدث لرجلٍ كبح اسمهُ بطرس دي رودر (de Rudder) باستحمامهِ في حوض سيدة لورد فانجبر بغتةً عظم ساقهِ المكسورة بشفاعة البتول بعد ان ضاق ذرع الاطبَّاء عن شفاء دائهِ واقرارهم بمجزم

٤ مبادئ العربية للمدارس الابتدائية – في الصرف والنحو للمعلم رشيد افندي الشرطوني. طبعة ثانية مصحَّحة. بالمطبعة الادبية (ص ٨٨ ١٩٠٢)

٥ ترجمة حياة البطريرك مكسيموس مظلوم بالفرنسيَّة لحضرة الارشيمندريت منسنيور الكيس كاتب. طُبعت بمطبعة البروبغندا سنة ١٩٠٢ (ص ٢٧)

شَذَرَاتٌ

﴿ وَشن او إشان الأعواد ﴾ قد بشرت بعض المجلَّات والجرائد العلمية العربية قرَّاءها بخبر اكتشاف ٤٠٠ لوح من الاجرّ البابلي على يد علماء الالمان من اللجنة الشرقيَّة وبان في تلك الالواح مباحث عزيزة في آداب تلك اللغة ومؤلفاتها المدرسيَّة وقد ذكرت تلك الصحف نقلًا عمَّا نشرهُ الافرنج ان ذلك كان في محلٍّ من

بقايا بابل وقد اختلف كتبة الجرائد في كتابة اسمه فمنهم من قال: « نشان الاسود ». ومنهم من دعاهُ: « نيشان الاواد » (؟). ومنهم من اطلق عليه اسم « نيشان الأَوْد » وغيرهم غير ذلك. امَّا الرواية الصحيحة فهي: « إشان الأعوَاد » ويُريد الاعراب بالإشان كلَّما ارتفع من الارض والبعض منهم يُسمّيه « بالتل » ايضاً ويجمعون الاشان على أشن (eucheun) ومنهم من يقول في المفرد « وشان » ويجمعها على « وُشُن » والكلمة الاصليَّة الفصيحة هي « وَشَن » وهو ما ارتفع من الارض. وقلب الهمزة واوًا وبالعكس امر مشهور عند العرب (المزهر ١: ٢٢٣) الّا ان اعراب العراق قد خصُّوا كلمة « الأُشُن » بالتلال المتقوّمة من انقاض الآثار العاديَّة. ولهذا تَسْمَعُ اسماء تلال كثيرة تبتدئ بكلمة « اشان » وقد جمعتُ منها اكثر من مائة اسم من هذا القبيل وعليه « فليتن لا يسعهُ السفر الى بابل ليتحقق صحّة اللفظ من بدو تلك الناحية ورهبانها » ليكتفِ بمطالعة المشرق ويقرّ بفضله والله يهدي من يشاء.

الإطوريون — قد ذكر حضرة الاب الفاضل لامنس اليسوعي الايطوريّين غير مرَّة في المشرق (من ذلك ٢: ٢١٥ و٦: ٨٢٤ الخ) وبيَّن بدلائل لامعة ساطعة انهم كانوا من القبائل العربيَّة او الارمية التي مدَّت جناح سطوتها على البلاد الواقعة جنوبيَّ دمشق وشرقيّها وان ايطورية في الاصل توافق بلاد اللجا وجيدور الحالية. الى غير ذلك من الفوائد الجليلة. الّا انهُ لم يبحث عن اصل هذه التسمية ومعناها وعربيتها الاصليَّة فإتماماً للفائدة اقول: ان حضرة الاب كتب اسمهم مرَّةً بصورة « ايتوريين » (المشرق ٢: ٢١٦) ومرة « ايطوريين » (المشرق ٥: ٨٢٤) والاصح في كتابتها « الإِطوريّين او الايطوريّين » ومعنى اللفظة « الجَبَليُّون » اشارة الى منشإهم لانهم كانوا في الجبال الصخريَّة الواقعة في شرقي دمشق المعروفة اليوم باسم « جبل حوران او جبل الدروز واللَّجا » ومعنى « طور » بالعربيَّة كما في سائر اللغات السامية « الجبل » ومعنى « إ » أو « أي » « ال » التعريف. وذلك ان اداة التعريف عند اهل تيماء هي « الهاء » كما في العبرية ثم نُقلت الى الهمزة لما بينهما من المقاربة في المخرج. وكان حقُّ هذه الهمزة ان تُفتح تبعاً للاصل الّا ان بعض قبائل العرب كقيس وربيعة وتميم كانت تكسر المضموم او المفتوح اينما وقع فيقولون مثلاً رِحيم ورِغيف وبِعير بكسر اوائلهنَّ والاصل الفتح كما هو مشهور. وكل كلمة مبدوءة بهمزة مكسورة اذا وافقتها

كلمة عبرية من لفظها يكتبها العبريون بالياء. ولذا يكتبون « إيطوريَّة » هكذا: יטורה

ثم ان لفظة « جَيْذُور » ليست الَّا « يِيطور » نفسها مصحفة على لغة من يقلب الياء جيماً مطلقاً سواء كانت تلك الياء خفيفة او مشدَّدة وفي الاوَّل او في الحشو او في الطرف (التاج في اوَّل باب الجيم ٢ : ٧٢) ثم رقَّقوا الطاء وجعلوها دالًا وذلك « لان هذه الاحرف الثلاثة اعني الزاي والسين والصاد تتعاور كما تتعاور التاء والدال والطاء » (المزهر ١ : ٢٢٩) مع ذكرِ امثلة كثيرة. فصارت « جَيْذُور » باعادة الفتح الى اصلهِ. فتدبَّر

(الاب انستاس الكرملي)

(المشرق) انَّ اشتقاق ايطوريَّة من الطور ملاحظة حسنة سبق المستشرقون فاشاروا اليها. اما بقيَّة الفوائد فجديرة بالاعتبار بيد انَّنا لا نقطع بصحتها. وكذلك لم يحكم العلماء حكماً فصلًا في التوحيد بين « جيدور » و « ايطورية » لانَّ معاملة « جيدور » بلاد سهل امَّا « ايطورية » فعلى قول حضرة الاب انستاس معناها الجبليُّون. هذا فضلًا عمَّا بين الكلمتين من التباين في اللفظ ه. ل

العرب في رودسية — قد نشر حديثاً المستر ستنلي لان بول في المجلَّة الانكليزيَّة (Proceedings of the Royal Irish Academy) كتابة عربيَّة وُجدت منذ عهد قريب في جنوبيّ افريقية في بلاد المتابلي من اعمال رودسية. والكتابة المذكورة تاريخ ضريح احد المسلمين اسمهُ سلم بن صالح المتوفَّى في سنة ٩٥ للهجرة الموافقة لسنة ٧١٣ الميلاد. وقد استدلَّ العلماء بهذا الاكتشاف على ان العرب دخلوا جنوبيَّ افريقية منذ القرن الاوَّل لتاريخهم واستعمروا تلك البلاد القاصية مدَّة قرون عديدة وتاجروا مع الزنج من اهلها. واليوم صار اصحاب الآثار ينسبون اليهم ابنية عظيمة ترى في تلك الجهات اخربتها كانوا من ذي قبل في ريب في بُناتها ظنَّ البعض انَّها من عهدٍ قديم سبق تاريخ المسيح وقد بالغ غيرهم في قدمها حتى نسبوها الى عهد سليمان (راجع المجلَّة الأثريَّة ص ٦٣ من السنة الحاليَّة)

أسئلة وأجوبة

س سأل حضرة القس انطون صابر هل توجد مستحجرات من ذوات الثدي وهل تُعرف مدَّتها لانَّهُ قرأَ في كتاب مشهد الكائنات (ص ١٧٤) انَّ « ذوات الثدي قلَّ ما يُشاهد منها »

مستحجرات ذوات الثدي

ج ليس الكلام الوارد في كتاب مشهد الكائنات سديدًا فانَّ مستحجرات ذوات

الشدي كثيرة لا يخلو منها متحفٌ من المتاحف الجيولوجية وقد وُجد منها ما يرتقي الى الطور الثالث اعني قبل ظهور الانسان على الارض. وسنعود ان شاء الله الى هذا الموضوع

س وسأل حضرة القس يوسف حبيقة البسكنتاوي كيف نوفّق بين قول القديس بولس (عب ٩: ٤) حيث يقول انّ تابوت العهد كان يحتوي « لوحي الوصايا وقسط المنّ وعصا هارون » وبين آيات سفر الخروج (١٦: ٣٣) وسفر العدد (١٧: ١٠) والملوك الثالث (٨: ٩) والايام الثاني (٥: ١٠) التي صرّحت بوجود لوحي الوصايا فقط في التابوت

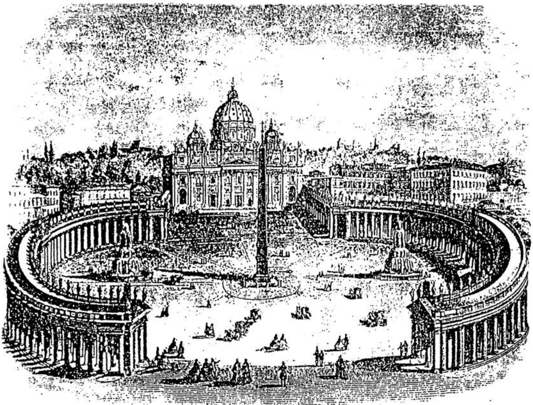
ما كان يحتويه تابوت العهد

ج لا يخالف ما ورد في رسالة القديس بولس الى العبرانيين عن مضمون تابوت العهد ما ورد في اسفار العهد القديم لانّ التابوت لم يكن في اول الامر يتضمن غير لوحي الوصايا. ثمّ جُعل فيه بعد ذلك بزمان قسط المنّ وعصا هارون وكانا في محل آخر من المقدس. ولنا على ذلك شاهد وهو تقليد اليهود دوّنهُ الربّيون منهم الربّي لاوي بن جرسون والربي أبرَبنل وكلاهما يوافق القديس بولس في قوله

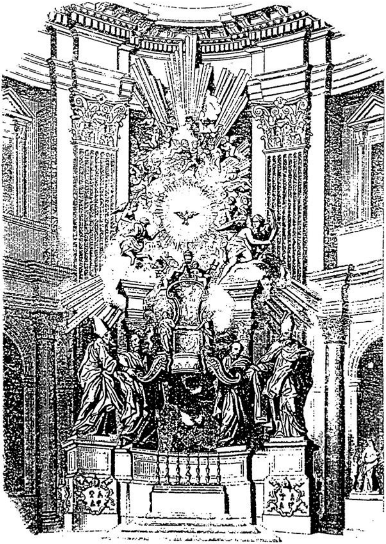
س وسألنا كيف امكنّا ان نقول في شرح مجاني الادب (ص ٢٤) ان الحبيس الذي زارهُ ابراهيم بن ادهم المتوفّى سنة ٧٧٨ للمسيح انهُ هو القديس سمعان العامودي المتوفّى سنة ٤٨٠. ثمّ انّ في روايتنا عن اعمال هذا القديس اختلافات كثيرة مع ما روى غيرنا فمن اين ذلك ؟

القديس سمعان العمودي ودير سمعان

ج قد سقط من شرحنا في هذه الصفحة سطر كامل بسهو صفّاف الحروف كما نبّهنا الى ذلك في ملحقات لنا على هذا الشرح. فانّنا كنّا كتبنا هكذا: « انّنا نظنّ انّ هذا الحبيس [احد السامطة الاربعة الذين اشتهروا بعيشتهم فوق العمود وكلهم قديسون واشهرهم] هو القديس سمعان. . . » فسقط السطر الذي تراهُ بين معكّفين. أمّا ما ورد من الاختلاف بين روايتنا ورواية غيرنا عن سيرة القديس سمعان العامودي الاوّل بخصوص سنة ميلادهِ وزمن عيشتهِ على العمود وغير ذلك فانهُ ناجم عن اختلاف الروايات في ترجمتهِ. ولو اردنا تدوين هذه الروايات وما فيها من الآراء المتضاربة لرأى السائل العجائب الغرائب وتحقّق انّ قولنا في سنة ميلادهِ ٣٦٠ اقرب الى الصواب. وكذلك في سني زهدهِ واقامتهِ على العمود اكثر من خمسة عشر رأيًا (راجع اعمال البولنديين المجلّد الاوّل ص ٢٦١ — ٢٨٦). امّا موقع دير سمعان الذي ذكرهُ هنا القزويني وجعلهُ في جوار دمشق فقد وصفهُ ياقوت في معجم البلدان (٢: ٦٧١) وقال « انّ عندهُ قبر عُمَر بن عبد العزيز » واليه اسندنا رأينا ل. ش



١ منظر كنيسة مار بطرس في رومية وساحتها



٢ كرسيّ مار بطرس الرسولي